الفصل الرابع
التمييز العنصري لم يمت

الغرض من التمرين هو أن نحصل على
بعض الصخور التي سوف تبقى لنا.
وزارة الخارجية، لندن، 1966

نحن، شعبَ جنوب إفريقية، نعلن أن بلدنا
ينتمي إلى كل واحد وأن كل شعبنا
سوف يشترك في الثروة.
ميثاق الحرية، المؤتمر الوطني الإفريقي

ادعوني تاتشرياً وحسب.
تابو مبيكي، رئيس جنوب إفريقية.

إذا لم ينجز المؤتمر الوطني الإفريقي
وعوده، فيجب على الشعب أن يعمل به ما
عمله بنظام حكم التمييز العنصري.
نيلسون مانديللا.

انتصب برج المراقبة عالياً وقد ارتسمت صورته الظلّية على صفحة الجبل المتشكل بشكل الطاولة، وأضاءته الإشعاعات الأولى المنبعثة من ضياء الشمس في مطلع الصباح، وسرحت طيور النورس وعامت في الاتجاه نفسه الذي تهب فيه الريح، ودرجت نعامتان إلى جانب موج البحر المتكسر على الشط تكسراً لطيفاً. وتحتنا كانت ترتفع قمة جبل قديم مغمور بالمياه المالحة منذ مدة طويلة عند رأس طرف إفريقية، وهو مكان من الحجر الكلسي وحجر الصوّان، وحطام اثنتين وعشرين

سفينة. وقال طيار الطائرة العمودية الأفريكاني*: "على ما يبدو ذلك هو المحجر الذي كانوا يعملون فيه". قال الطيار ذلك وهو يميل بالطائرة إلى الجانب وقدماً وهو لا يدرك أن واحداً من "أولئك" الذين أشار إليهم في كلامه كان يجلس إلى جواره. ونظر كاثي – أحمد كاثرادا – إلى الأسفل وأومأ برأسه، ونظاراته السوداء تغطي عينيه اللتين تضررتا من وهج الحجر الكلسي في المكان الذي أحسن فيه استخدام الفأس، هو ونيلسون مانديللا، وولتر سيمولو والرجال الخطرون الآخرون، عاماً فوق عام، وعقداً بعد عقد.

وفي 21 آذار/مارس من العام 1960، وقعت مجزرة غيّرت كل شيء تقريباً في جنوب إفريقية التمييز العنصري. وذلك حين أطلقت الشرطة النار وقتلت تسعة وستين شخصاً في مدينة شاربفيل، وأعلن "الكفاح المسلح" كل من المؤتمر الوطني الإفريقي، ومؤتمر كل إفريقية، وتلا ذلك الإعلان اعتقالات في البيوت وبدأ القادة بالعمل السري تحت الأرض. وأدى إلقاء القبض في نهاية الأمر على مانديللا، وسيسولو وكاثرادا مع كل من غوفان مبيكي، ودينس غولدبيرغ، وريموند ملابا، وإلياس موتسوليدي وآندرو مانجيني في مزرعة ريفونيا، وهي المقر السري لقيادة المؤتمر الوطني الإفريقي، أدى إلى "محاكمة خيانة ريفونيا".

في 12 حزيران/يونيو من العام 1964، تبين أن المعتقلين مذنبون بتهمة التخريب ضد الدولة (على الرغم من أن الكفاح المسلح كان في مرحلة التخطيط فقط) وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة. وفي اليوم التالي، أرسل الجميع بالطائرة إلى جزيرة روبن ليبدؤوا تنفيذ أحكامهم، باستثناء غولدبيرغ، الذي أرسل لتنفيذ حكمه إلى سجن فيه قسم للبيض فقط. واستذكر كاثي ونحن نهبط على نفس مهبط الإسفلت المعد للطائرات بعد مرور ثلاثة وثلاثين عاماً بالقول: "لقد كان يوماً من أيام الشتاء الباردة برداً قارساً". وكانت هناك لافتة على القوس تقول: "نحن

* الأفريكان هو من يتحدث لغة جنوب إفريقية وهو من نسل الهولنديين وخصوصاً المستوطنين الهولنديين من القرن السابع عشر وغيرهم من الأوروبيين.

نخدم لنعمل"، وحين رآها كاثي لأول مرة، ذكرته بالقول: "العمل يجعلك حراً"، وهي اللافتة التي سبق له أن رآها على البوابات في أوشفيتز.

"كنت في الرابعة والثلاثين من عمري وكنت الوحيد غير الإفريقي. [فهو من نسل هندي.] ولهذا السبب، كنت الأول الذي يصرف له اللباس الموحد للسجن. فقد كان العرق يقرر كل عمل. وأعطيت القميص النظامي، والكنزة الصوفية، والسترة المصنوعة من قماش القنب(الكتان)، والبنطال، والجرابات، والحذاء. وكان الجو بارداً للغاية، ومع ذلك فقد أعطي ماندييلا والآخرون بناطيل قصيرة، ولم يعطوا جرابات، ومنحوا، تفضلاً خاصاً من السجن، أحذية بدلاً من الصنادل المطاطية التي تعطى عادة إلى الأفارقة. ولكن كان يتوجب عليهم أن يلبسوا البناطيل القصيرة، ولم يكن هناك أي تنازل، لا، ولا في الشتاء. والأساس الذي قام عليه التمييز العنصري كان بسيطاً تماماً: فقد كان ينظر إلى الأفارقة بصفتهم أطفالاً. وهذا الأساس مازال صحيحاً. فأنت ستجد البيض، في بيوتهم، يتحدثون عن صبي حديقتهم وعن فتاة مطبخهم".

قادني على طول الممرات الرمادية كلون السفينة الحربية، والتي كان الصمت يسودها باستثناء صوت الريح وصوت المحيط وصوت وقع أقدامنا وهو يرجع الأصداء على الأرضية اللامعة. وقالت لافتة أخرى: "نحن نخدم بكبرياء". وهز كاثي رأسه. وقال: "هذه هي"، وهو يدير المفتاح في باب ما ظهر وكأنه مقصورة حجرية، خمسة أقدام في خمسة أقدام. دخلنا كلانا، وكدنا، نحن الاثنين، نملؤها تقريباً. "نمت على تلك الأرضية طوال أول أربعة عشر عاماً. لم أكن أمتلك فراشاً، مجرد حصيرة من ألياف نخيل الرافية. ذلك كل شيء. حصلت على خزانة كتب وفي نهاية الأمر سمحوا لي بصنع طاولة".

وسألته: "كم بقيت في هذه الزنزانة؟"

"ثمانية عشر عاماً تقريباً... مع بقاء الضوء مشتعلاً، ودائماً يضيء إضاءة ساطعة".

"لم يطفأ أبداً؟"

"أبداً".

"هل بقي هذا المكان، بالنسبة إليك، زنزانة، عبر كل تلك السنين؟"

"لا. كنت أبقى فيه ثلاثاً وعشرين ساعة في اليوم، وأفترض أنني أعطيته بضعة مني. وقد حاولت أن أعطيه بعض اللون. وكان من عادتي أن أطلب أوراق الصرّ في أعياد الميلاد وألصقها على الجدار وعلى خزانة كتبي كلها: كل شيء إلا الرمادي. الحياة ليست رمادية".

"ما الذي افتقدته واشتقت له أكثر من كل شيء؟"

"حضور الأطفال وأصواتهم، وضحكاتهم، لا بل بكاؤهم. أنا نفسي لم يكن لي أطفال... وكان النظام يفهم ذلك التوق، ويفهم الراحة التي يوحي بها مجرد الإيحاء بوجود الوضع الطبيعي، وحين كان السجانون يحضرون عائلاتهم، كنا نؤمر أن ندير لهم ظهورنا. لقد كان ذلك قاسياً".

"كيف كنتم تحصلون على الأخبار؟"

"في السنوات القليلة الأولى، كان يسمح لنا برسالة واحدة وبزيارة واحدة في كل ستة أشهر، وكان يجب أن تكون الرسالة في حدود لا تتجاوز خمسمائة كلمة. وقد منعت عني رسالتي الأولى لأنهم اعترضوا على المحتويات. وبعد ثمانية عشر عاماً، سلمت لي أخيراً وكان الجزء موضع الاعتراض هو: (كان هناك تغيير في الحكومة في بريطانيا العظمى. هارولد ولسون وحزب العمال هم الآن في السلطة.) لقد اعتبر ذلك خطراً. وكانوا يخافون من حصولنا على المعلومات، أكثر من خوفهم من أي شيء آخر.

"وفي العام 1976، احتجت إلى العلاج الطبي الذي لم يكن متوافراً إلا على الأرض الرئيسية فقط. وبعد أن نزلت من المركب المعدية، قيل لي، إن مسار الطريق الذي اتخذته سيارتنا، كان ينبغي أن يتجنب ملصقات الصحف. وفي عيادة الجراحة عند الدكتور، جلسنا في غرفة انتظار، وقد أصيب حراسي بالرعب، حين وصل مرضى آخرون وفتحوا صحفهم. فأمروا بأن يبعدوها، ورفض بعضهم ذلك، طبعاً،

ولذلك شكل السجانون جداراً بشرياً حولي لكيلا أستطيع أن أقرأ العناوين الرئيسية".

وفي إحدى الغزوات على زنزانته، وجد السجانون صورة لأمرأة بيضاء، هي سيلفيا نيم. وقد صرح كبير السجانين الملازم فوري بالقول: "إن كاثرادا هندي وأنا لا أستطيع أن أرى أي سبب لماذا يريد صورة امرأة أوروبية... ليس مسموحاً له أن يمتلك صورة امرأة بيضاء في زنزانته". فمزقها ورماها عند قدمي كاثي. سيلفيا نيم كانت حبيبة كاثي. وبموجب التمييز العنصري، كانت العلاقة الحميمة بين الأعراق جريمة. وهي، أيضاً، كانت عضواً في المقاومة وسجنت فيما بعد.

وأخذني إلى زنزانة مانديللا وحدقت برعب في محدوديتها، ثم خرجنا منها إلى ضوء الشمس وضحكنا حول أشياء لا جدوى منها وتأملنا فيما دعاه كاثي "الحظ المذهل" للسكان البيض بوصفهم المستفيدين من الكرم الذي سمي "المصالحة". وتعجبت كيف كان ممكناً بالنسبة إليه أن يخرج من ربع قرن من الزنزانة في السجن (مدة سجنه أقل بسنتين فقط من مدة سجن مانديللا) وهو مخلوق بشري عاقل، ومتوازن، ومتسامح، ويمتلك روح الفكاهة.

قال لي إن تأثير غاندي قد علمه أن يتجنب المرارة، وفي رسالة من السجن، سبق له أن كتب: "من سوء الطالع، فإن طبيعتي لن تسمح لي أن أضمر البغضاء لأي شخص، بغض النظر عن مدى العمق الذي قد يكون قد جرح به مشاعري".1 وحين سألته كيف استطاع أن يستمر بالاحتمال، كانت الأسباب الثلاثة التي قدمها هي القوة الداخلية التي استمدها من الناس الذين يحبهم، وشيوعيته، وفوق كل شيء، الكفاح الذي تقاسمه مع رفاقه في جزيرة روبن.

وقال لي: "سأعطيك مثالاً، حين كان أحدنا يصير منخفض الروح المعنوية، لم نكن وحدنا أبداً. فكبار الناس، سيسولو ومانديللا، بغض النظر عن مشكلاتهم الشخصية، كانوا دائماً هناك لمساعدة أولئك الذين هم منا بحاجة إلى المساعدة. فقد كانوا يحضرون معجون الأسنان والصابون لأولئك الذين نفدت نقودهم. وحين

كان وباء الأنفلونزا يجتاحنا، فإن مانديللا واثنين أو ثلاثة من الآخرين كانوا ينظفون سطول حماماتنا ويفرغونها، وكانوا يحضرون لنا الماء والطعام. وفي إحدى المرات، كنت أتألم ألماً سيئاً من ظهري، وكنت لا أستطيع أن أتحرك لأفرغ المبولة. كان الآخرون يظهرون فوراً، مانديللا والآخرون، وكانوا يأخذونها ويعتنون بي ويتأكدون من أنني كنت على ما يرام".

وفي رسائل كاثي من السجن، يشير بحب إلى مانديللا وسيسولو بوصفهما الشخصين المسنين "العجيبين" لأنهما لم يكونا يوافقان على الثقافة الشعبية التي كانت تهمه. وقد كتب في العام 1988 يقول: "كما ترون فإن العجيبين رجلان متعلمان عموماً في البعثات التبشيرية... وهما يميلان إلى الحشمة بشكل مبالغ فيه، وهذا يحدد المحادثة مباشرة بالموضوعات المناسبة المباحة، ويمنع منعاً باتاً رواية النكات (الفظة) واستخدام النعوت البذيئة رباعية الحروف كذلك – ولو كان ذلك في حالة الغضب!"

وكان ضبط النفس الذي يتحلى به مانديللا وتردده في إظهار العواطف، وخصوصاً بعد زيارات ويني أو أصدقائه القدامى له، يسخط كاثي. وقد كتب يقول: "نحن مقتنعون (وقلنا له ذلك) إنه لو دعي إلى المنصب وقيل له إنه سيطلق سراحه، فإنه سيعود إلى الزنزانة ويقول لنا بعد ساعة أو ساعتين وكأن الأمر كان ببساطة شيئاً من تلك الأشياء التي تحدث كل يوم".

وسألته كيف كان المسنون العجيبون ينظرون إليه. فقال: "لم يكن هناك في أي مرة إظهار لمشاعر عدائية نحوي، والسبب هو أنني بوصفي غيرإفريقي، عوملت من النظام معاملة أفضل بقليل من المعاملة التي عوملوا بها. فقد كنت أحصل على طعام أفضل بقليل منهم: على سكر أكثر وربع رغيف من الخبز، في حين أن مانديللا والآخرين لم يكن يسمح لهم بأي خبز. وبعد احتجاجات دامت سنة أو سنتين، سمح للسجناء الأفارقة بشراء الخبز في وقت عيد الميلاد. تلك هي الطريقة التي يعمل بها الكفاح في السجن. وبعد ثلاث سنين أو أربع، نجحنا في مساواة الملابس، كي يستطيع السجناء الأفارقة أن يلبسوا بناطيل طويلة. أما المساواة في

الطعام فاستغرقت وقتاً أطول – أكثر من عقد فعلياً – ولكننا في النهاية نجحنا. وبطريقتنا تلك، كنا مستمرين في القتال ضد التمييز العنصري".

ولساحة التمرين الموجودة في جزيرة روبن جدار طويل، كان كاثي يلمسه لمساً ينم عن الاحترام تقريباً. وقال لي: "قبل أن يرتفع هذا الجدار عالياً، كان لدينا حديقة هنا. وقد استغرقنا سنوات لنحصل على الإذن من أجلها، وقد كان ذلك كسباً حقيقياً، وخصوصاً لأنها لعبت دوراً كبيراً في كتابة قصة حياة مانديللا، التي كتبها على أرض الجزيرة، سرياً وبشكل غير قانوني. كان مانديللا يكتب عشر صفحات أو اثنتي عشرة صفحة في المرة الواحدة، ثم يعطيها لي من أجل الحصول على تعقيباتي، وإلى والتر سيسولو من أجل تعقيباته، ثم يقوم بكتابة النسخة النهائية، ويسلمها إلى سجين آخر من المؤتمر الوطني الإفريقي، وهو ماك ماهاراج، لينسخها ويحولها إلى خط يدوي صغير. لقد كان ماك رائعاً في ذلك النسخ، وكان يصغر ستمائة صفحة إلى خمسين صفحة أو أقل من ذلك، ثم يخفيها، ولن أتابع إلى أين. وأما بالنسبة إلى الأصل، فقد كانت النسخة تدفن في الحديقة في محافظ بلاستيكية. وكانت الفكرة هي أن يقوم ماك حالما يخلى سبيله بعد اثنتي عشرة سنة بأخذ النسخ إلى لندن ثم يرسل لي إشارة تقول إن النسخة قد وصلت سالمة إلى أيدي الناشرين. آنئذ كنا نستطيع أن نعدم الأصل.

"ولكنهم وبشكل مفاجئ بدؤوا ببناء هذا الجدار، وفي أحد أيام الأحد صباحاً، كان هناك مانديللا وأنا وواحد أو اثنان آخران من السجناء، وكنا نحفر بحدة لننقذ الأصول. وحصلنا على بعضها قبل أن يقبض علينا. وكان جرمنا هو أننا أسأنا استخدام الامتياز الخاص بالدراسة فأخذت منا كتبنا وعلقت دراساتنا".

"طوال كم من الزمن؟"

"أربع سنوات".

لقد كان يتحدث وكأن السنوات كانت أشهراً، لا بل أسابيع. وإن مقابلة من كانوا في جزيرة روبن مثل كاثي، وإلقاء نظرة على حياتهم، يعني أن نفهم كيف

أن الكفاح ضد التمييز العنصري في جنوب إفريقية وفي كل أنحاء العالم قد استمد قوة كبيرة من مثالهم الذي ضربوه في الشجاعة الأخلاقية والمادية وفي الإبداع الذي لا يعرف الحدود. ومن أجل هذا السبب. صارت تعرف جزيرة روبن باسم "جامعة الكفاح". ولكنها كانت أيضاً حفرة من جهنم.

وكتب زميل سجين يقول: إن جونسون مالامبو "كان رجلاً محكوماً بعشرين سنة سجناً، وصدر له الأمر بأن يحفر حفرة كبيرة بما يكفي لتناسبه. ولم يكن يدرك ما الذي كان سيتبع ذلك، وكان ما زال يحفر حين غلبته فجأة بشكل ساحق مجموعة من السجناء. ودفعوه إلى الحفرة وبدؤوا بإهالة التراب عليه لملء الحفرة... وحين انتهوا كان رأس مالامبو فقط هو الذي يظهر فوق الأرض. وقام سجان أبيض، كان هو الذي وجه كل ذلك العمل، بالإبالة في فم مالامبو. وحاول السجناء أن يفتحوا فكيه المغلقين بشدة فلم يستطيعوا... والسجان يبول ويبول... وحين انتهى السجان... أمطره بلكمات شريرة من القبضات والحذاء حول الرأس المشرئب من الأرض بلا حول ولا قوة.

الإهانة والوحشية، المنهجية منها والعشوائية في آن معاً، مثلتا التمييز العنصري مثلما اكتشفتُ بسرعة حين كنت مراسلاً شاباً في مهمة لي في جنوب إفريقية في الستينيات من 1960. في يومي الأول هناك اصطحبني صحفي إلى حانة في جوهانسبيرغ، وهي نموذج للمكان الصغير المتواضع جداً غير المطروق، الكثير الدخان، الذي تنبعث منه روائح عرق رواده، والذي ينذر بالشر تقريباً، والمغطى بالخشب، ويستهلك فيه الزبائن تنويعات وكميات فاسدة من مشروب البراندي الكحولي المحلي. كل واحد من الزبائن كان مخموراً، ومعظمهم بلا رجل. وكان الذي اصطحبني إلى هذا المكان صحافياً محلياً هائلاً وباحثاً عن كشف الفساد، وهو ميش ليفين، وأخذني إلى هذا المكان حسب قوله: كي "نستهل دخولك العمل، يا رجل". وميش هذا، الذي كان يكره التمييز العنصري، كان قد أبرز نفسه قبل بضعة أسابيع بالمشي حتى اقترب من جون فوستر، رئيس الدولة، في مطار جان سمطس وصاح بالرئيس: "أنت لاشيء بل مجرد رجل نازي حقير!"

وبعد أن صرنا في داخل هذا المكان المتعفن، كشر في وجوهنا أحد المرتادين السكارى الذي أصر على أن يخبرنا بتراثه الإسكوتلندي، وهو الأمر الذي يجعله على ما يبدو أعلى من "البوير". وأراد منا أيضاً أن نعرف كيف يعامل السود معاملة حسنة. وقال لنا: "أنتم لا تصدقون هذا الهراء عن كون السود فقراء جداً، أليس كذلك؟" ومن دون انتظار جواب منا صاح لصاحب المكان اليوناني وقال: "يا نيك، أرسل أسْوَدَك!"

وظهر رجل أسود مسن لا يمكن تحديد عمره، وزمجر عليه السكير، وقال له: "خذ، يا ولد، أحضر لي بعض الروثمانز من الآلة هناك". وأحضر الرجل العجوز السجائر وناوله بقية النقود، فرماها السكير على الأرض. وقال له: "تلك النقود لك، يا ولد، جميعها! أترون يا أصدقائي، انظروا كيف نعامل السود معاملة طيبة!" وركع الرجل العجوز نازلاً على ركبتيه وجمع النقود.

كان العام هو 1967. وطرت إلى كيب تاون على متن طائرة الخطوط الجوية لجنوب إفريقية التي كان تنجيدها البرتقالي والذهبي الباهر يتوافق مع القبعات البافارية الطراز التي كانت المضيفات يضعنها. وسألتني المرأة التي جلست في الكرسي الذي يليني عن رأيي بجنوب إفريقية، مثلما سألني عن ذلك كثيرون من البيض، وخصوصاً الذين كانوا يرون أنفسهم ليبراليين. وقالت المرأة: "أليست بلاداً جميلة؟" ولم تكن تهتم سواء أجبت أم لم أجب.

وساق سيارة الأجرة من مطار كيب تاون رجل نحيل، بلا أسنان كان يدخن سلسلة من السجائر بإفراط وكان له جلد ممتقع شاحب وعينان غائرتان مثل الفقراء البيض من جنوب إفريقية. وقال لي، بلمسة من الإنذار، والخليج المتشكل بشكل الطاولة قد امتد أمامنا: "لا يوجد منظر مثله في العالم، أليس كذلك؟ هل ترى رأس الأسد؟ وذلك الشكل هناك، تلك جزيرة روبن، وفيها نحتفظ بالإرهابيين". وكان مانديللا وكاثي قد بدأا، قبل قليل فقط، سجنهما لمدة ربع قرن في محجر الحجر الكلسي.

ذكرتني كيب تاون قليلاً بسيدني، المدينة التي ترعرعت فيها: فوجهها يتجه نحو المحيط والريح، والشواطئ المبيضة كثيرة الأمواج، وطريقة البيض الهادئة المسترخية على ما يبدو، هي هي، فالكثيرون منهم "يحاولون" "أن يحصلوا على تلوين البشرة" على الشواطئ الجميلة، وهي الشواطئ التي حُظِرت في معظمها على الناس الذين تلونت بشرتهم من قبل. والاختلاف الذي تختلفه عن جوهانسبيرغ، كما قيل لي، هو أن بعض الناس "المختلطين" في شهادات ميلادهم عاشوا في كيب تاون مثل البيض تقريباً. وكانوا يكسرون القانون كل يوم بالجلوس في المقاعد المخصصة للبيض فقط في سيارات الركاب، وفي حضور العروض في دور السينما المخصصة للبيض فقط وفي المساكنة مع البيض كذلك.

وبالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يجدون هذه الدورة من الخداع أكثر مما يحتمل وكانوا يريدون أن يضعوا الختم الرسمي النهائي على مكانتهم الشرفية البيضاء – أولئك الذين، كما يقال في تعبير محلي حاد، قرروا أن "يحاولوا أن يكونوا بيضاً"– فقد كان هناك مؤسسة تمييز عنصري لا تكاد تصدق تسمى هيئة إعادة التصنيف العرقي: لا يكاد يصدق، أي، بالنسبة إلى الحياديين من الخارج، ولكنه يصدق وحيوي معاً لأولئك الذين قذفوا شرائح مقامرة حياتهم على الأبيض. فإن استطاعوا أن يقنعوا هيئة محكمة مكونة من ثلاثة أشخاص أن مظهرهم كان أبيض وأنهم كانوا على وجه العموم مقبولين من "الجمهور" بصفتهم بيضاً، فإن الهيئة قد تمارس سلطتها لتغيير التصنيف العرقي على بطاقة هويتهم. وكان الأمل المنظور هو امتياز طوال العمر، أو اذلال طوال العمر. وطبعاً، لم يكن للناس من أصحاب الجلود السوداء من حاجة إلى التقدم بمثل هذا الطلب.

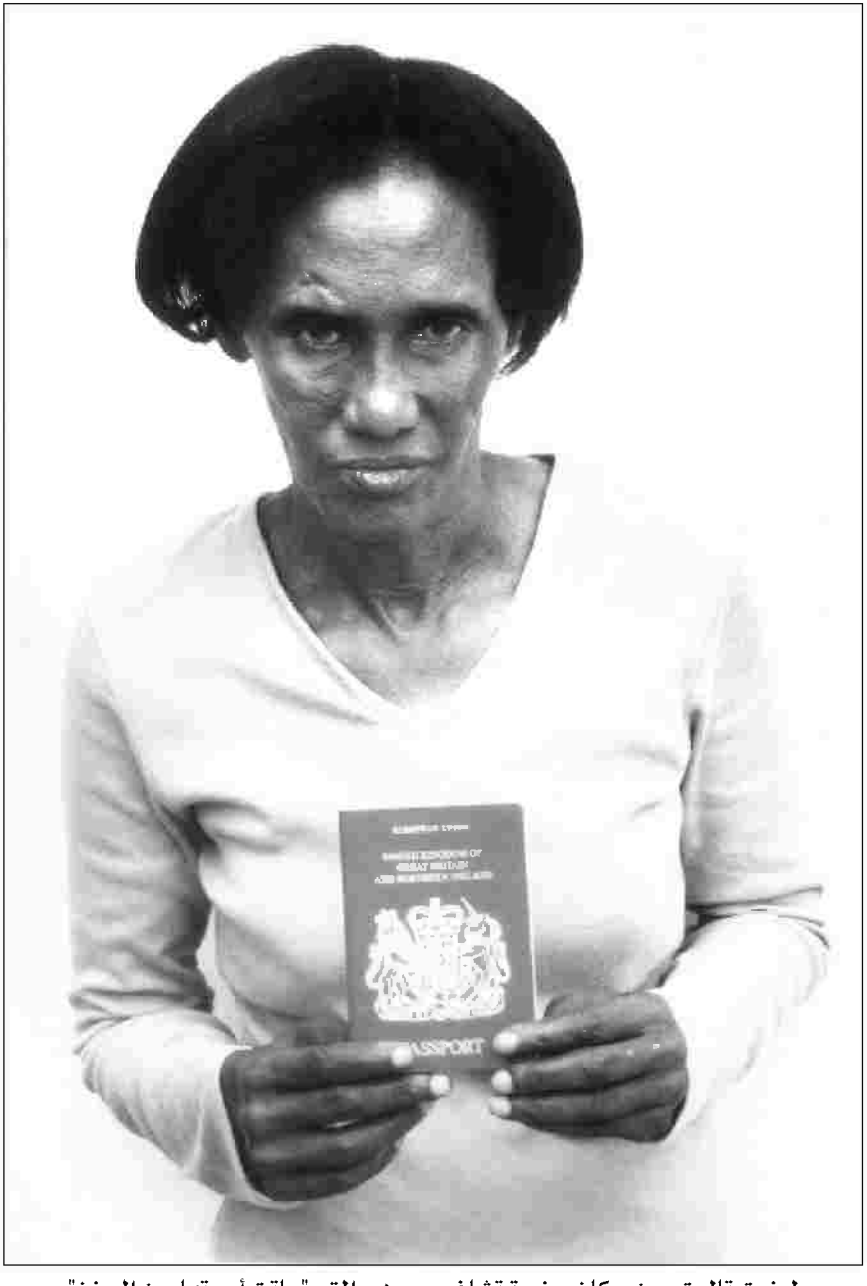

ليزيت تاليت، من سكان جزيرة تشاغوس، وهي التي "ماتت أسرتها من الحزن"
بعد أن طردتهم الحكومة البريطانية

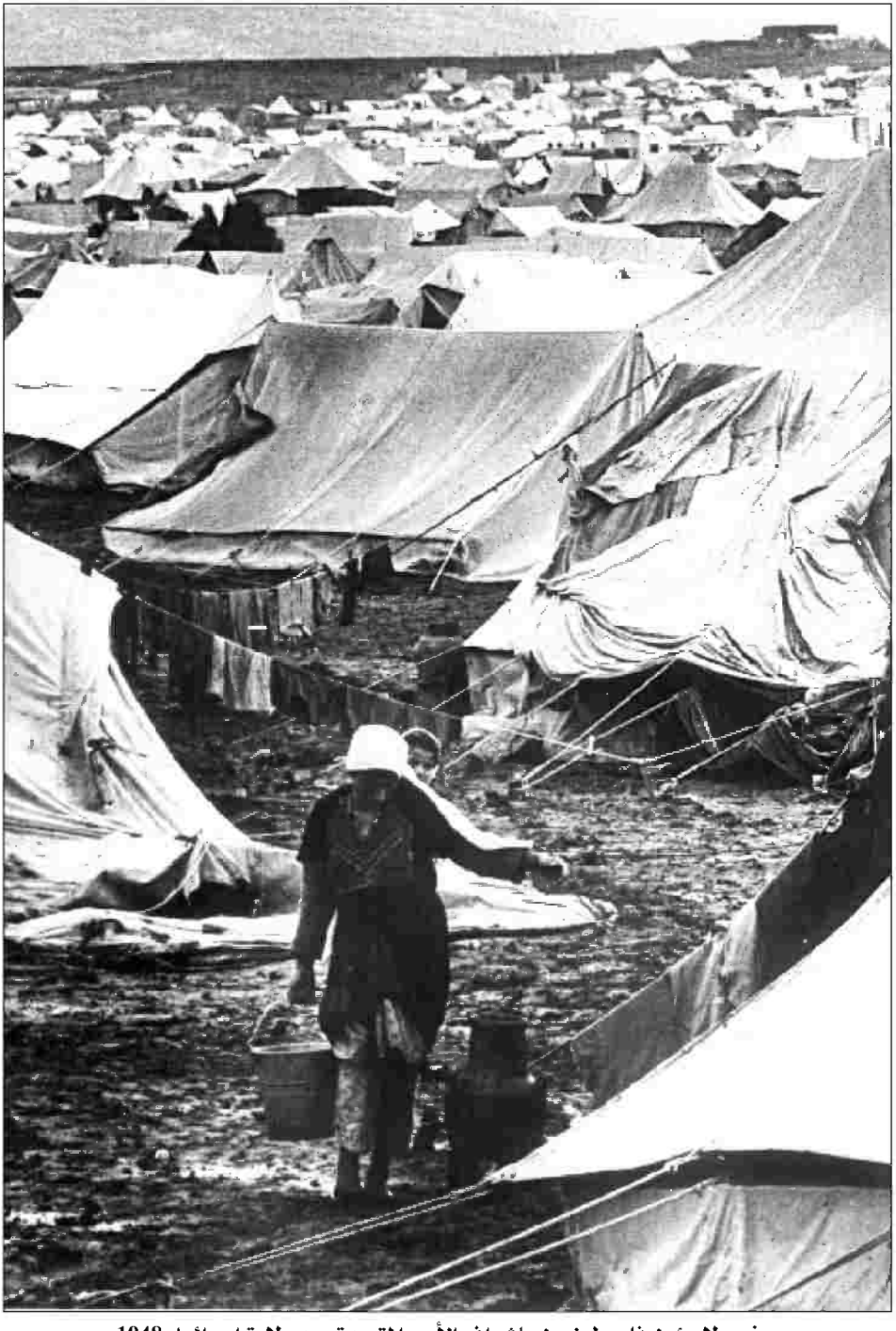

مخيم لاجئين فلسطينيين بإشراف الأمم المتحدة بعد ولادة إسرائيل 1948

فتاة فلسطينية صغيرة، من غزة 2002

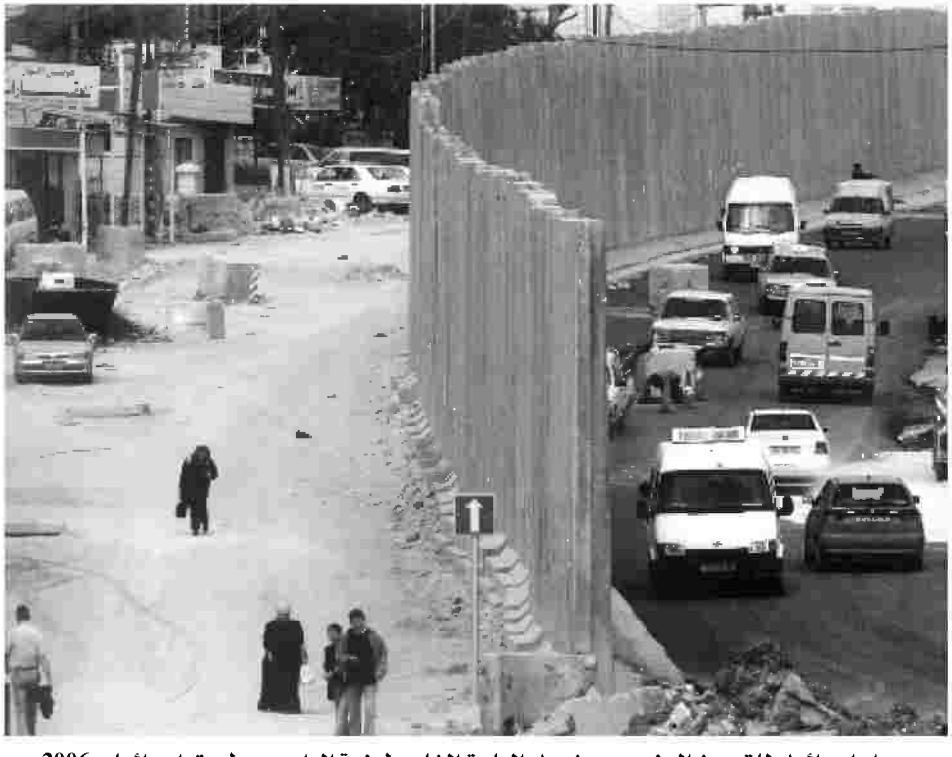

جدار إسرائيل للتمييز العنصري يفصل البلدة الفلسطينية الرام عن طريق إسرائيلي 2006

الملاكم روني فان دير وولت من جنوب إفريقية، تم تدمير مساره الوظيفي حين "أعاد" نظام حكم التمييز العنصري "تصنيف" عرقه من "أبيض" إلى "ملون" في العام 1968

جون بلجر يجري مقابلة مع نلسون مانديللا في كيب تاون 1997

جوناثان شابيرو ("ثابيرو")، الميل والغارديان جوهانسبيرغ 2000

الأغنياء السود الجدد في جنوب إفريقية، ديربان، ديربي 2005

سيارات ركاب كابول، تحولت إلى نفايات على يد أمراء الحرب الذين دعمهم الغرب 2005

الدكتور سيما سامار تقسم اليمين بصفتها أول وزيرة أفغانية لشؤون المرأة. وتعرضت في الحال للمضايقات لتترك المنصب وهي اليوم تخاف على حياتها 2001

جنود أمريكيون يلقون الأوامر على الأفغان خارج قاعدة باغرام، بالقرب من كابول 2005

يوجد في أفغانستان ألغام أرضية غير مزالة أكثر من أي بلد آخر في العام 2001

الهند "الجديدة 2004

قبل أن أصل ببضعة أسابيع، كان برلمان جنوب إفريقية قد أصدر تعديل قانون السكان، وهو القانون الذي ضيق التمييز العنصري، وذلك من خلال تطلبه، في الدعوى من أجل إعادة التصنيف العرقي، لا "للمظهر والقبول" فقط بل تطلبه أيضاً "البرهان على سلالة" المتقدم بالطلب، وليس غير الأحمق فقط هو الذي يحاول أن يكون أبيض الآن، لأن القانون الجديد قال إن السلالة "الملونة" كانت تعني "ملونة" طوال الحياة، بغض النظر عن "بياض" جلد الشخص المعني. وبالإخلاص النموذجي المفرط للغاية للتفاصيل، عمل مشرعو التمييز العنصري على جعل التعديل يغطي 353 شخصاً هم الذين كانوا آنئذ ينتظرون "إعادة تصنيف" أعراقهم.

هذا الوسواس بالعرق كان هو القلب الأسود للتمييز العنصري، وكان ضحاياه هم أشد الناس حزناً. وقد توصلت إلى مقابلة واحد من هؤلاء، وهو ملاكم اسمه روني فان دير وولت، تسلم رسالة من وزارة الداخلية قدر لها أن تغير حياته. وبدأت الرسالة بالآتي "من ناحية قانون التوزيع السكاني، فأنت بموجب هذا القانون مصنف بصفتك شخصاً ملوناً".

روني فان دير وولت كان بطلاً محلياً، من وزن 135–147 رطلاً إنجليزياً، وكان قد هزم ويللي لودوك، بطل جنوب إفريقية والمتنافس الأول على لقب العالم لهذا الوزن. وكان يشار إليه على نطاق واسع بأنه البطل الثاني. وكان أفريكانياً واسمه ولغته كانا إنتاج الأفريكانية، وكان الحفيد الفخور لجوهانس فان دير وولت، وهو واحد من أعظم المصارعين في جنوب إفريقية. وقد ذهب إلى المدارس المخصصة للبيض فقط، وأقام مبارياته مع الدوائر الغنية المخصصة للبيض فقط – والملاكمون "الملونون" بغض النظر عن مدى قدرتهم، كانوا محظوظين في الحصول على ما يعادل 5 جنيهات للمباراة – وأهم من ذلك، فقد كان يعتبر نفسه رجلاً أبيض وموهوباً بالإحساس بالخصوصية المركوز في الأفريكانيين. ومن الطبيعي، أنه كان مسانداً طوال عمره للحزب القومي بقيادة الدكتور هندريك فيروورد.

ومع كل ذلك، فبالنسبة إلى العيون الرسمية التي تابعت مساره العملي والصعود السريع لشعبيته، كان روني فان دير وولت مشبوهاً. لقد كان داكن البشرة، مثلما كان سائق سيارة الأجرة التي استأجرتها ومثلما هم العديدون من الأفريكانيين: وذلك نتيجة، في معظم الأحيان، للاتصال الجنسي المثمر بين أجدادهم المستوطنين البيض وبين الهوتينتوت والخويسان في كيب تاون وبين أجدادهم وبين السود في مناطق الزراعة المعزولة. فإذا وضعنا هذا جانباً، فإن من المحتمل أن يكون شخص ما في عالم الملاكمة قد حمل ضيغنة لروني، وكانت تلك هي الطريقة الأكيدة للتخلص منه. ففي اليوم الذي تسلم فيه الرسالة من الوزارة، كانت قد ذهبت نسخة منها إلى هيئة ضبط الملاكمة في كيب، وكان من المتوقع أن يتبارى روني في دوري مباريات في غرين بوينت ستاديوم في كيب تاون. وفجأة حذف اسمه من البرنامج ومزقت الملصقات التي تحمل صورته.

وقد قال لي سيدني بيك، أمين سر الهيئة: "كان علينا أن نفعلها وإلا فإن روني كان سيغرم أو سيسجن. فالقانون يقول إن الملونين والبيض لا يستطيعون الخطو إلى داخل الحلبة نفسها، وروني البائس المسكين هو الآن ملون".

قابلت روني وزوجته راشيل في بيتهم في المزرعة الاستعمارية الهولندية، التي تبعد ثمانية أميال عن المدينة. وكانت الجدران مليئة بصور روني وهو في مجده: روني بعد الضربة القاضية، روني يتسلم تلك الجائزة. وكان هناك صورة بيضوية لجده فان دير وولت، كان وجهه صارماً شديد البياض. وقال لي روني:"أنا أعتذر عن عيوني الحمر، وأريد أن أكون صريحاً معك، فقد كنت قلقاً ومضطرباً طوال شهور، منذ أن تسلمت رسالة من هيئة تصنيف العرق". وهذه الهيئة: استدعته إلى الغرفة 33 من مبنى كلية التدريب القديم، وأمرته في "ملاحظة هامشية" مكتوبة بخط اليد بأن "أحضر زوجتك وأولادك".

"رأيت رجلين في أوقات مختلفة، حاولا أن يكونا مؤدبين، ولكن ذلك كان صعباً لأنهما كانا يوجهان لي أسئلة من مثل: (من هم أصدقاؤك؟ هل هم بيض؟) وقال أحد الرجلين:(حسناً، إذاً، من هم المتحمسون لك؟ أليسوا هم أصدقاءك؟)

فقلت لهما بعضهم كانوا أصدقاء، ولكن، يا رجل، أنا لا أستطيع أن أتجنب الموقف إذا كان الناس الملونون يحبون أن يروا مبارة جيدة. لماذا لا ينبغي لهم أن يروها؟ ومشى الرجل الثاني حول راشيل، زوجتي، وحول أطفالي محدقاً فيهم من كل زاوية مثلما تفعل حين تشتري حيواناً. لم يقل شيئاً، مجرد تحديق. ثم همس قائلاً: (لا تقلق، سوف أبذل أفضل جهدي من أجلك.) لم يفهم الأطفال ذلك، طبعاً، ولكني أقول لك، نحن بكينا كلنا حين صرنا في الخارج".

وبالنسبة إلى روني، فإن العار المتمثل في كونه قد أعلن رجلاً ملوناً كان يعني أن عليه أن يلبس قبعة لأول مرة في حياته، وهي قبعة واسعة الحافة ومشدودة إلى الأسفل على عينه. "في سيارة الركاب اليوم، قارنت ذراعي العاري مع الرجل الجالس على المقعد بجانبي. إذا كنت أنا أسود، فيجب أن أكون في حلم..".

كانت محنة فان دير وولت في الغرفة 33 خفيفة بالمقارنة مع محنة أولئك الذين استدعوا ليمثلوا أمام غرفة النجمة التابعة للهيئة. ومحنتهم كانت أيضاً قضية واحدة من قضايا قليلة وصلت إلى الصحافة، وذلك بسبب مكانة روني في عالم الرياضة. لا بل حين تصل الحالة إلى المحكمة العليا لمزيد من الاستئناف، لم تكن تنشر أي أسماء، وكانت جلسات الاستماع سرية – وذلك من منطلق الاحترام للناس، كما زعمت الحكومة، الناس الذين أجبروا في استقتالهم من أجل أن يصنفوا بيضاً، على أن يتخلوا عن كل شيء ربما كان أسلافهم فخورين به. مثل هذا الاهتمام الإنساني المعترف به كان احتيالاً، والإجراءات في الغرفة 33 كانت سرية، والسبب، كما عبر عنه ميش ليفين هو "أن التمييز العنصري يكشف عن سوأته ويعرضها هناك".

وبعد تدبير تقديم رشوة، هُرّبتُ إلى داخل مبنى كلية التدريب القديم في شارع الملكة فكتوريا، وإلى الطابق الثاني حيث اتخذت لي مقعداً في مؤخرة الغرفة 33. وهنا كانت شعوذة التمييز العنصري المرعبة معروضة بادية للعيان، وهنا جعلوا الانحراف الأخلاقي والفكري للتمييز العنصري يبدو عادياً مع وجود "الإجراءات" و"الخطوط الهادية" واتخاذ القرارات المستندة إلى "معايير". وقد أخذت الغرفة ترتيب محكمة قضائية فيها قاض، وصندوق للشاهد وطاولات للتشاور تمثل "المتقدمين" بالطلبات

ووزارة الداخلية، وكان يرأسها ثلاثة مسؤولين، وكان يتم التعبير عن احترامهم المتجهم والمخادع عن طريق المجاملة المبالغ بها والتي كانت سلوكاً غريباً ووحشياً.

الأسرة الأولى التي تمت مرافقتها إلى الداخل كانت أسرة رجل متوسط العمر، ومعه زوجته، وطفلاه، وأحدهما عمره عشر سنوات والآخر ثماني سنوات. وكانوا أسرة من الأفريكانيين الترانسفال ولم تكن قضيتهم غير مألوفة: كان الولد الصغير قد ولد بملامح زنجية، وعلى الرغم من أنه كان قد سجل عند مولده بصفته أبيض وعمد في قلعة التمييز العنصري، وهي الكنيسة الإصلاحية الهولندية، فإن الهمسات في المدينة قد وصلت إلى ذروة جعلت مدير مدرسة الطفل يتحرك ليكتب ما يلي إلى والديه: "لا أستطيع بعد الآن أن أتجاهل اهتمامات الآباء الآخرين، وبناء على الصلاحية المخولة لي من إدارة التعليم، فيجب علي أن أعلمكم أن ابنكم يجب أن يسحب من هذه المدرسة إلى أن يتم توضيح حالة عرقه الأوروبي".

بدأ "القضاة" استجوابهم، وسألوا والد الصبي، "بالنسبة إلى معرفتك، هل تساكن أبوك أوجدك مع بانتو؟" (البانتو: هي اللفظة المستخدمة في التمييز العنصري عن كلمة الأفريكاني.) وكانت الإجابة هي الألم المقموع فقط، وتحولت الإجابة إلى إهانة حين سئلت الأم: "هل سبق لك في أي وقت أن ذهبت مع بانتو؟"

وصاحت: "هل سبق لي ماذا؟"

"هل سبق لك في أي وقت أن حبلت من بانتو؟"

"أوقف هذا! ماذا تقول؟"

"أيتها السيدة، يجب علينا أن نثبت إن كان هناك بعض التعدي على مورثاتك؟"

"مورثات؟ أنا لا أعرف ما هذه المورثات..".

ودام التحقيق ثلاثة أرباع الساعة والزوجان يدعوان الله أن يساعدهما. وبعد ذلك نزل المسؤولون الثلاثة عن المنصة ودعوا الصبي للتقدم نحوهم. أحدهم أخرج مشطاً، ومشط به شعر الصبي، مرة بعد مرة، بعد أن يبله في محلول صاف في

قارورة عليها ملصق يعرّفها. وحين انتهى من التمشيط، رفع جفون الصبي وحدق في بياض عينيه، وفتش لثته. وأخيراً، أمَرّ كلتا يديه حول قاعدة جمجمته. وتمتم الثلاثة تمتمة رزينة فيما بينهم، وختموا الإجراءات بتوجيه الشكر إلى "كل شخص له علاقة" وتمنوا لهم "جميعاً الأفضل".

وفي فرصة تناول الغذاء، سألت الأب ماذا هو فاعل إذا صنف ابنه ملوناً. فأجاب: "ماذا أستطيع أن أفعل، غير جعله خادم البيت أو شيئاً مثل ذلك، وإلا، فلن يكون قادراً على العيش معنا، هل يقدر؟"

وبعد ثلاثة أشهر ساندت الهيئة طلب العائلة "على أساس السلالة" واحتفظ الابن بتصنيفه الأبيض. ومع ذلك، فقد وصلت الوصمة والعداوة اللتان دار حولهما الهمس إلى درجة كان معها على العائلة أن تنتقل بعيداً عن المكان الذي كان الجميع منهم قد ولدوا فيه.

وروني فان دير وولت نفسه قدم أيضاً استئنافاً لدى الهيئة، وبدأ أصدقاؤه يعدون قضية كانوا يأملون في أنها ستبرهن على سلالته البيضاء. ولكنهم، مع ذلك، كانوا على وعي بأن راشيل، زوجة روني، لها أصول "مختلطة" كان بالإمكان تتبعها. وهكذا، ولو أن روني صنف أبيض، فلن يكون بعد الآن مسموحاً له أن يعيش مع زوجته، لأنهما لو عاشا معاً لكانا بذلك يخرقان قانون منافاة المبادئ الأخلاقية الذي حرم المساكنة بين الناس من تصنيف عرقي مختلف. وبعد أن تم تدمير مسيرة روني المهنية في الملاكمة، لم ينتظر روني لسماع الاستئناف وأخذ أسرته ليعيش في بريطانيا.[3]

وللتمييز العنصري ما يسميه الاعتذاريون عنه "الحالات الشاذة". وأكثر هذه الحالات الشاذة حيوية هي المنطقة السادسة، في مركز كيب تاون. وتقبع المنطقة السادسة بين أسفل الجبل الطاولة وبين المحيط الأطلسي، وكانت متاهة من الشوارع المتعرجة والدروب المرصوفة بالحصى، والمباني السكنية فيها المكونة من الشقق هي نسخ من بيوت "هولنديي الكيب" المستوية السطوح التي تعود إلى أواخر

القرن الثامن عشر. فأكثر من خمسة وخمسين ألف آسيوي، وإفريقي، و"ملونين" مختلطي الأعراق، وبيض عاشوا هناك، بوئام إذا تحدثنا عن ذلك بوجه عام. لقد كان هذا ميراثاً رناناً من كيب تاون الأصلية التي كانت طوال قرون موطناً للبحارة من البرتغال، وللفلاحين من هولندا وانجلترا، وللعمال من الهند وولايات الملايو، وللأفارقة المحليين. وأولئك الذين ينحدرون من أعراق مختلطة، الذين يسمون بالملونيين، كانوا هم مصدر فخر المنطقة السادسة بقدر ما كانوا منتجاً لها، وكان يقال: هذا ما كان عليه التسامح في مركز اللاتسامح المأسس.

وكتب بريان بارو يقول في روح المنطقة السادسة: "إن الناس الذين لم يعرفوا حقاً المنطقة السادسة قطعياً يرفضونها بوصفها حي الفقراء المكتظ،

فهم لم يحرصوا أبداً على نوعية الناس وحيوية الناس الذين كانوا يشكلون دم حياتها. وكان من عادتهم أن يعززوا معتقداتهم بملاحظات مؤذية عن الشوارع القذرة، والجدران المنقشرة، وتهريب المخدرات. فهم قد رأوا المنطقة من الخارج فقط من دون أن يحرصوا أبداً على روحها. وهذا المدخل حمل بذور المأساة المحتومة لأن روح المنطقة السادسة كانت في قلوب أهلها وفي عقولهم... ففي الوقت الذي وجد فيه كثيرون من سكان جنوب إفريقية الفخر والتقدير في روابطهم الثقافية مع أوروبة ومع الأجزاء الأخرى من العالم، فإن سكان المنطقة السادسة كانوا سعداء تماماً في أن يكونوا هم أنفسهم على حال فريد، وهم بفعلهم ذلك، تطابقوا مع تعريف "سكان جنوب إفريقية" مطابقة أكثر أصالة من أي شخص آخر غيرهم.[4]

اصطحبني إلى المنطقة السادسة باسيل أوليفيير، الذي كان آنئذ أعظم لاعب متقن للعبة الكريكت الإنجليزية ولعدة ألعاب أخرى، والذي كان قد ترعرع هناك وتعلم لعبته الكريكت في الشوارع وفي الملاعب الترابية المغبرة. وكان دوللي، كما كان معروفاً في المنطقة السادسة وفي انجلترا، مقيماً في بيت طفولته مع زوجته نعومي ومع طفليه. وقبل سبع سنوات، كان قد قبل عرضاً من نادي ميلدتون في عصبة لانكشاير المركزية، وهو يعرف أنه لن يلعب لجنوب إفريقية أبداً بسبب عرقه. وصار مبعث الإثارة، في مهارة ضرب كرة الكريكت بمضربها، وفي عملية

قذف الكرة نحو الضارب، والتقاف الكرة أو وقفها في طريقه إلى صفحات الرياضة من النوع الثقيل في شارع فليت للصحافة: وكان يضرب مائة نقطة في خمس وعشرين دقيقة ومائتي نقطة في خمس وستين دقيقة. وبعد أن كان قد تقدم بنجاح للحصول على الجنسية البريطانية، اختير ليلعب عن إنجلترا ضد الآنديز الغربية.

وحين قابلت دوللي في كيب تاون، كان نظام حكم التمييز العنصري ونادي ماريلبون لرياضة الكريكيت في أوج المناقشة في "مفاوضات" سرية تدور حول دوللي وهل كان يستطيع أن يجول في الكريكيت في جنوب إفريقية عن إنجلترا في سلسلة اختبار القوة في الكريكيت في العام 1968. كان هذا وقتاً حرجاً بالنسبة إلى الحملة المتنامية لمقاطعة رياضة جنوب إفريقية، وفي المركز من الحملة كان هناك لاعب كريكيت متواضع، وموهوب موهبة عالية ويحمل رسالة كان التشديد فيها أقل من المتوقع ولكن ضعف التشديد هذا كان هو الذي جعلها أقوى. فقد كان يقول: "أنا لا أقول أي شيء، أنا أحاول فقط أن ألعب الكريكيت مع أفضل لاعبي العالم".[5]

في أثناء الشتاء الإنجليزي في 1966 – 67، عاد دوللي إلى المنطقة السادسة ليعلم اللاعبين الملونين الشباب، وقال لي: "لأعيد إلى شعبي ما سبق له أن أعطاني وربما لأساعد أفضل اللاعبين على الخروج". وقد تقابلنا أول مقابلة في بهو فندقي الذي أنزل فيه في مركز المدينة. وكان واضحاً أن هناك شيئاً ما خطأ. فثقته الجذابة اختفت، وبدا مذعوراً. وقال لي: "لقد تركنا العادة في إنجلترا، وقد ارتكبت غلطة. فنحن الآن نخرق القانون. ولو قبضوا علي هنا معك فيمكن أن أنتهي إلى السجن".

وكنا على وشك أن نغادر حين جاء نادل ليأخذ طلبنا. وكان إفريقياً، وعرف دوللي، وضرب بكفه على ظهر دوللي وهمس له: "اسمع، أنا سأخدم باسيل أوليفيير العظيم ولو كان هذا يعني المخاطرة بوظيفتي. ماذا سيكون، أيها الرجل؟ جعة (بيرة)؟" كان الجلوس مع رجل أبيض في فندق مخصص للبيض فقط شيئاً، وأما تناول الكحول معه فكان يعني المخاطرة بحظوظه. وطلب دوللي عصير

فواكه، ولكنه استمر في التلفت حوله. وقال: "أنا آسف، لم أفكر في أني سأشعر بهذه المشاعر ثانية".

وقد ركضنا تقريباً لنقطع مسافة المجمعات السكنية القليلة إلى المنطقة السادسة، وكأننا ركضنا إلى الأمان. ودخلنا شارع هارينغتون، الحي اليهودي بمعابده اليهودية التسعة، وعبرنا شارع فيرنون تيريس، الذي انتظمت فيه صفوف نخله الكبير الذي أحضرت بذوره على يد الحجاج من مكة المكرمة، ومحلات الكاري، ومحلات يتدلى فيها السجق مثل الستائر، ومحلات الصقارين، ومحل الحلاقة كانيون الكبير، والكنيسة الموارفية ومسجد شارع موير، الذي علقت عليه الكتابة: "الحماسة أداة حياتي.... الحزن صديقي... المعرفة سلاحي".

والأطفال، شوارع من الأطفال، ومعظمهم يصيحون "دوللي، دوللي رجل العجائب*! ألعب معنا، من فضلك، يا رجل!" وظهر فوراً مضرب وكرة تينس قديمة، والرجل الذي حقق حديثاً ستاً وأربعين ركضة – 6، 6، 6، 6، 6، 4، 6 – من ثماني كرات مقذوفة عليه ضرب كرة نازلة في التل، فالتقفها وأوقفها بخبرة بارعة رجل يلبس طربوشاً. ولحق بنا الجمهور إلى القديس يوسف، وهو المكان الذي كان دوللي قد ذهب فيه إلى المدرسة، وحيانا مدير المدرسة، السيد فينان، وقال: "في الوقت المناسب تماماً للصلاة، يا باسيل! هل سمعت؟ إنهم سيهدمون المدرسة تالياً. وسوف يتسلم البيض إدارتها. كل شيء سينتهي إلى المسطحات الرملية... منزاحاً عن الطريق".

في العام 1950، صنف قانون مناطق الجماعات العرقية الناس حسب العرق وجعل من غير القانوني بالنسبة إلى الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة أن يعيشوا في المنطقة نفسها. وبقيت المنطقة السادسة استثناء مفهوماً من غير كلام عنه. وفي العام 1966، صرح وزير الإسكان، بي. دبليو. بوتا (رئيس الدولة لاحقاً) عن المنطقة السادسة بأنها منطقة مخصصة "للبيض فقط". ولم يؤخذ الإعلان في البداية على

* شخصية في أفلام الصور المتحركة تحارب الشر عند الضرورة بفضل خاتم منحه رجل دين لهذه الشخصية. (المترجم)

محمل الجد من كثيرين من المقيمين، الذين قالوا: "لن يفعلوها أبداً. أين سيضعون أناساً مثلنا؟" والمسؤولون الذين ظهروا في الشوارع، للقيام بمساحة المخططات ودراستها، صاروا محل سخرية متزايدة للنكت من كل جبان. وكانت أسود نكتة هي أنهم جاؤوا من "إدارة تنمية المجتمع".

وقد وصلت أول جرافة مباشرة بعد ذلك وغادرت آخر جرافة في العام 1980. وحولت الجرافات كل بيت وكل محل تجاري وكل ملعب إلى حطام. وقاوم الناس بالدفاع عن أنفسهم، وكثيرون رفضوا أن يغادروا مساكنهم إلى أن أرغموا بالقوة وأخلوا من ديارهم و"نقلوا" إلى شبه الجزيرة الرملية التي تذروها الرياح والواقعة بين الجبل الطاولة وبين جبال "هوتينتوت هولندا" التي تحدد المنطقة النائية خلف الساحل. وكأنما للهزء من طردهم، سمح لهم أن يأخذوا أسماء الشوارع معهم. وكل ما بقي واقفاً من المنطقة هو كنيسة موارفيا الصغيرة، وكنيستان، ومسجد.

طار باسيل دوأوليفيير راجعاً إلى إنجلترا بعد قضائه الشتاء في المنطقة السادسة وكان قد اختير للالتحاق بالفريق الإنجليزي ليلعب في أستراليا من أجل دوري الرماد*. ومباشرة بعد أن سجل 158 نقطة في الاختبار النهائي، أحيط علماً بأنه كان سيستثنى من فريق الاختبار الذي سيجول في جنوب إفريقية في العام 1968. وكان ذلك القرارقد اتخذ ليوفر على نظام التمييز العنصري "الإحراج" من أن يكون عليه أن يمنع باسيل من وطنه بدل أن يسمح لرجل ملون أن يلعب الكريكيت مع البيض. وقد قدم تحقيق قامت به هيئة الإذاعة البريطانية(بي بي سي) الدليل القاطع على أن المؤسسة البريطانية، ممتلة بنادي كريكيت ماريليبون ورئيس مجلسه، رئيس الوزراء المحافظ السابق أليك دوغلاس هوم، قد تواطأت مع

* سمي دوري لعبة الكريكيت بين إنجلترا وأستراليا بهذا الاسم نسبة إلى نعي ساخر نشرته الصحف الرياضية في إنجلترا عام 1882 حين هزمت أستراليا إنجلترا في عقر دارها وقال النعي الساخر إن رياضة الكريكيت الإنجليزية قد ماتت وإن جثتها ستحرق ويؤخذ رمادها إلى أستراليا. وفي العام التالي سمت الصحافة الإنجليزية الدوري باسم السعي إلى "استعادة الرماد". (المترجم)

نظام حكم التمييز العنصري لإبقاء دوللي خارج الفريق في الوقت الذي يحافظون فيه على شعار "يجب المحافظة على الرياضة خارج السياسة"6

لدى عودتي إلى لندن، تلقيت رسالة من سفارة جنوب إفريقية تمنعني من الدخول إلى البلد "حتى أجل غير محدد في المستقبل". ولم يعط أي سبب لذلك. وبعد ثماني سنوات، هاتفني مسؤول في السفارة ليقول لي إنه كان يود أن يقابلني. كان اسمه كريستوفر فان دير وولت، وهو اسم روني. وهو اسم عائلة شائع بين الأفريكانيين، ولكن كم هو مدعاة للمفارقة الساخرة. وتقابلنا ثلاث مرات، وفي أثنائها أخبرني كم كان يكره كلاً من التمييز العنصري و"حرس البوير القديم". وقد أكد لي أن الأفريكانيين الشباب المتنورين، مثله هو، كانوا يتسلمون السلطة. ثم جاء إلى النقطة موضع الاهتمام. وقال لي بطريقة أهل جنوب إفريقية الخجولة بشكل عجيب: "إن الصحافيين من أمثالك الذين كانوا معاندين في السابق، يجب أن ينالوا محاولة ويتقدموا لطلب تأشيرة. وحين تحصل على تأشيرتك، سوف أعطيك قائمة بأسماء الناس المناسبين، الناس المتنورين، لإجراء مقابلات معهم". وقال إنني لن أعرف جنوب إفريقية التي عهدتها في الستينيات من 1960. "فالحالة قد تغيرت تغيراً هو خارج نطاق كل تمييز".

كنت مازلت أنتظر جواباً لطلب تأشيرتي حين انتفضت سوويتو، بقيادة أطفال المدارس، ضد مضطهديها. وكان رد الفعل، في 16 حزيران/يونيو من العام 1976، وقوع مجزرة. ونشرت صحيفة راند ديلي ميل 499 اسماً من الشعب الأسود عرف بأنهم قتلوا. وكانت الشرطة قد أطلقت النار على معظمهم، وكان بعضهم أطفالاً صغاراً بلغت أعمارهم أربع سنوات، وكما في شاربفيل*، فالعديد منهم أطلقت عليهم النار في ظهورهم. ورمي الجرحى منهم في أكوام على يد الشرطة الذين وضعوهم مع القتلى، وتركوهم عمداً ليموتوا.

* مجزرة شاربفيل وقعت في آذار/مارس 1960 حين فتحت شرطة جنوب إفريقية النار على المحتجين السود وأردت سبعة وستين قتيلاً و180 جريحاً وكان معظم القتلى والجرحى من النساء والأطفال. (المترجم)

والتهبت الانتفاضة ثانية في كل أنحاء جنوب إفريقية في الثمانينيات من 1980 وتدفق المحتجون من مدن مناطق العزل العرقي. وقوبلت الاضرابات والمقاطعات بحالات الطوارئ الوحشية غير الفعالة من الناحية السياسية. وكانت جنوب إفريقية تتحول إلى دولة حصار، وبدأ نظام حكم التمييز العنصري يصاب بالذعر. وصار الامتياز الأبيض، الذي أنعم على البيض بمستوى معيشة هو واحد من أعلى المستويات على ظهر الأرض، صار في خطر، وخصوصاً حين قرر الرأسماليون الناطقون باللغة الإنجليزية سرياً أن يخرجوا من الفراش الذي جمعهم مع دعاة التمييز العنصري، وذلك بعد أن صاروا منبوذين دوليين وصارت صفتهم المتنامية هذه أمراً سيئاً للأعمال والتجارة. وسينجم عن ذلك عقد سلسلة من الاجتماعات السرية والأخرى المعلن عنها إعلاناً جيداً، بين رجال الأعمال البيض وبين قادة المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، وسيكون عقد الاجتماعات أمراً حاسماً في تحويل "الكفاح" إلى مصلحة رجال الأعمال البيض، وفي الإشارة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي باحتضان إيديولوجية الرأسمالية الدولية، أي إيديولوجية الليبرالية الجديدة.

في 2 شباط/فبراير من العام 1990، أعلن اف. دبليو. دو كليرك، الذي كان قد تسلم السلطة من بي. دبليو. بوتا، رئيساً للدولة، أن "حظر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، ومؤتمر جميع إفريقية، والحزب الشيوعي لجنوب إفريقية... هو حظر يجري إلغاؤه". بعد ذلك مباشرة، تم تحرير نيلسون مانديللا. وفي العام 1994، وقف ملايين من جنوب إفريقية في الصفوف، وبعضهم وقف لعدة أيام، كي يصوتوا في أول انتخابات ديمقراطية تحدث في البلاد مطلقاً.

وكان ذلك هو نهاية القسمة القسرية "القانونية" للشعب بحسب لون جلد أبنائه، أما قسمة الشعب بحسب وسائل أبنائه الاقتصادية، وهي القسمة التي تساوي في شدتها القسمة الأولى، فبقيت من دون أي مساس بها. وكان ميثاق الحرية من المؤتمر الوطني الإفريقي قد أعلن في العام 1955: "نحن، شعب جنوب إفريقية، نعلن أن بلدنا ينتمي إلى كل واحد منا وأن كل شعبنا سوف يشترك في الثروة. وستكون

الأرض مشاركة بين أولئك الذين يعملون فيها. وسيكون هناك بيوت، وأمن وحق في العمل..".

بعد غياب ثلاثين عاماً، عدت في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1997. وضمت الآن مضيفات الخطوط الجوية التابعة لجنوب إفريقية في صفهن وجهاً "ملوناً" ولم يبقين يلبسن الآن القبعات البافارية الطراز البرتقالية اللون الضارب إلى الحمرة مثل برتقال طنجة. وحين فتشت جواز سفري امرأة سوداء جنوب إفريقية وأعربت لي عن تحية "أهلاً إلى جنوب إفريقية"، كان هناك أثر مثل اقرصني لأتأكد أنني لا أحلم. فقد كان الوقت وقت أمل ووقت حديث عن "أمة قوس قزح"، مصحوباً باهتمام متزايد بشأن الاتجاه الذي ستتوجه إليه حكومة التحرير.

ولبضعة أميال قليلة، وأنت تغادر مطار كيب تاون، كان الطريق السريع ن 2 يرتفع وينخفض بلطف، وعند كل قمة من الارتفاعات هناك جدار مبنى لم يكن من قبل موجوداً في أثناء التمييز العنصري. وقيل لي إنه بني لحماية السائحين وأهل الأعمال من مناظر ممتدة من الأكواخ المكتظة القبيحة المنظر كانت "قذى في العين". وهذا الاهتمام لحساسيات الأجانب صار يعرف باسم "عملية الهجوم على الأكواخ". وما هو غير عادي بالنسبة إلى كيب تاون ليس هو جمالها الطبيعي بل هو الطريقة التي يعرضها بها الكثيرون من البيض إلى بقية العالم بوصفها مدينة حديقة أوروبية وليس لها إلا ارتباط ضئيل مع إفريقية. ويبدو الأمر وكأن أغلبية السكان ليست موجودة، وهي أغلبية لم تكن موجودة من نواح عدة تحت حكم التمييز العنصري. قليل هو ما تغير.

ذا بروبرتي تايمز ملحق لجريدة كيب تايمز. وهي جريدة تورد ما يستشف منه وكأن كيب تاون هي سوربيتون* أو ميلبورن**. وهي تصف "الترف المطلق" على الشاطئ في كليفتون وخليج هوت المطل وتصف "الدور البهيجة المكونة من طابقين" في باينلاندز، فتقول "ورغم كل شيء، فالحياة تبدأ بعد سن 50" في قرية

* ضاحية من ضواحي لندن تلي نهر التايمز. (هذه الهوامش من صنع المترجم)

** مدينة في جنوب شرق أستراليا، بدأ استيطانها في عام 1835.

هيلدربيرغ، مع مروجها الخاصة للعبة الكرات الخشبية (الكروكية)، وبرك السباحة وأربعة مطاعم. إن "الفرص تنادي" ابتداء من أراضي ميدان لعب الغولف المخصصة حصرياً والمنتجعات الموجودة على طول طريق حديقة الكاب ("وادي الطبيعية هو الذي يحتل مكانة القمة") إلى بيوت كونستانتيا* التي تشبه الطراز التيودوري** فوق كيب تاون، وهي مكان من أغنى الأماكن على سطح الأرض.

في بريطان وبوير*** في كونستانتيا، كان هناك القلة من البوير الذين يمكن رؤيتهم، وكانت الأصوات تدل على سكان المقاطعات المحيطة بلندن والمحادة لها ومن حين إلى آخر أصوات سكان مناطق مصب نهر التايمز. وهم ينكرون أنهم حسب اللغة العامية الأفريكانية هم المفجّعون: أولئك الذين يضعون رجلاً في إفريقية وأخرى في بريطانيا. وهم يعبرون عن عنصريتهم، كما عبروا عنها دائماً، في ترميز كلمات مثل: "متمدن" و"ثقافي" و"عناصر إجرامية" وبعد بضعة كؤوس قليلة، تصير كلمة "الأولاد" تعني الرجال الأفارقة.

في الاتجاه الصاعد من الطريق عاش السير مارك تاتشر – قبل أن يصطدم ببعض الانزعاج وهو يمول انقلاباً عسكرياً في غينيا الاستوائية. وقفت خارج بوابته، وقد كتب عليها تحذير يقول إنني سيطلق علي النار إذا أنا حاولت الدخول. وكان يبدو للناظر شكل منقول من بيت مسقوف بالقش من نوع ديفون، وبعدئذ جاء رجال ضخام وفي آذانهم أسلاك يركضون.

وكان الذي باع هذا الصرح إلى تاتشر هي بام غولدينغ، وهي التي تدير عقارات بام غولدينغ، وهي سلسلة العقارات المتوافقة أكثر من غيرها مع الطراز الحديث في جنوب إفريقية. وقد أرتني بيتاً يشبه الطراز التيودوري في الجوار، وكانت تأمل أن تبيعه مقابل 2.500.000 جنيه إسترليني.

---

* مقاطعة في كيب تاون في مركز وادي كونستانتيا.

** الطراز التيودوري في العمارة الإنجليزية الذي ينتمي إلى الفترة التيودورية 1485 – 1603 نسبة إلى أسرة تيودور الحاكمة في إنجلترا في تلك الفترة.

*** اسم حانة في فندق ألفن في كيب تاون.

وسألتها: "هل ستحصلين على ذلك؟"

"أوه، نعم، فالمشترون، وخصوصاً من إنجلترا، يحبون شيئاً ذا نوعية رفيعة".

"هل فيها محل إقامة للخدم؟"

"نعم... محل إقامة الموظفين كما نسميها الآن... إنها في الخلف، مخبأة بعيداً: لا مشكلة. تدعو الحاجة إلى بضعة حدائقيين نوعاً ما، إلى فريق في الواقع. وقد شبهت الحدائق بحدائق كيو، كما ترى. لقد أنشئت لكي يتجذر قسم من إنجلترا هنا".

"هل تغيرت الحياة بالنسبة إليك وإلى زبائنك منذ نهاية التمييز العنصري؟"

"حسناً، نحن شاعرون كثيراً جداً بالناس المحرومين وكل واحد يعمل أفضل ما عنده لنصير أمة واحدة هي قوس قزح. لقد تغيرت الحياة يقيناً من وجهة نظر الأعمال التجارية. وحين فرضت العقوبات وطبقت، كان قاسية نوعاً ما في هذه البلاد".

"قاسية؟"

"قاسية في الأعمال. كنا معزولين. ومنذ صار المؤتمر الوطني الإفريقي في السلطة، تحسنت الأعمال وهي تزدهر. أعتقد أن الناس ينسون ما كان عليه شأن أمتعة الماضي".

"ما الذي تغير؟"

"المواقف. ليس هناك شك في أن الشركات تريد فعلاً تأكيدياً للعمل: وأنت تعرف، إدخال المديرين السود، ومشاركتهم خبرتنا معهم".

"وماذا عن المشاركة بالثروة، وإعادة توزيعها؟"

"نعم، حسناً... ليست كذلك... أعني، الشركات المشتركة مثيرة جداً للاهتمام لأن هناك التلاقي معاً، وهناك ثروة في صفوف الناس السود، بشكل واضح".

"هل ترين مطلقاً الجانب الآخر من كيب تاون؟ هل تعرفين مسطحات الكيب، منطقة التمييز العنصري والمناطق المكتظة الفقيرة؟"

"نادراً..".

"يجب أن تعجبي من التناقض بين بيت ضخم مثل هذا، وبين بؤس بيوت الناس غير البعيدة عنه".

"لا أعرف عن التعجب... انظر، في يوم من الأيام، ستكون الطوباوية هي أن يمتلك كل شخص بيته الصغير وقطعته الصغيرة من الأرض، ولكنها ستستغرق زمناً. هناك خطة واضحة في المكان المناسب".

"أنت بعت مارك تاتشر بيته..".

"أوه، نعم!"

"أي نوع من البيت هو؟"

"إنه بيت جميل جداً، إنه من النوع الذي أسميه بيت مدير تنفيذي في القمة. إنه مسقوف بالقش، نعم، ولكنه ليس ما نسميه في هذه البلاد المتجاوز للحدود العادية. وفي الواقع، أن في البيت نوعاً من... جزءاً من المذاق الإفريقي. ولكنه طبعاً ملكية ترف. والأمر، هو أنه كان يريد شيئاً ما حساساً... وأنا كنت مسرورة على وجه الخصوص لمقابلة البارونة تاتشر".

"لقد كانت صديقة عظيمة لشعبك في جنوب إفريقية، على مدى السنوات، أليس كذلك؟"

"أوه، نعم، إنها رائعة، وقد رحبنا بها في نادينا، نادي جبل نيلسون داينرز 100 (مونت نيلسون 100 كلب داينرز). وهو نادٍ للنساء مثل حالتي، نساء أعمال مشغولات..".

"أنت لم تقومي، بأي صدفة، ببيع إيرل سبنسر بيته. هل فعلت؟"

"نعم فعلت ذلك! وكان بيتاً مسقوفاً بالقش أيضاً في طراز إنجليزي وغير رسمي بشكل شديد. وأعتقد أنه سعيد هناك سعادة استثنائية". (بعد بضعة أشهر طلقته زوجته وحصلت على البيت).

"هل نحن في بريطانيا نفقد بعضاً من شخصياتنا المهمة لصالح جنوب إفريقية؟ هل هذا شيء يجب أن نقلق بشأنه؟"

"لا أعتقد ذلك مطلقاً. أعتقد أن الناس يأتون للموسم، إنهم يحبون كيب تاون ويشترون ويستثمرون... أعني، خذ هذا البيت... نعم، إنه بثمانية عشر مليون راند، ولكنه يرتفع تماماً إلى المستوى الإنجليزي. إنه كله مستورد: كل البلوط، والأبواب الجميلة".

"هل يشتاق الناس إلى الأيام القديمة الطيبة قبل 1994؟"

"أوه لا، نحن نحس بعاطفة كاسحة لنكون جزءاً من العالم مرة أخرى! نستطيع أن نذهب إلى أي مكان، إلى أوروبة، في أي مكان، والعبء قد ابتعد عن كواهلنا، لقد ذهبت الوصمة..".

في الطريق إلى شاطئ كليفتون، كانت جزيرة روبن تلمع من مسافة بعيدة. وقالت بام: "هذه هي ريفييرا كيب تاون". وكانت تريد أن تريني "جائزة الممتلكات" التي تخصها، والتي كانت تشرف على الأمواج المتدحرجة بلطف وهي تتكسر على الشاطئ. والمدخل الواقع على الشارع، والذي كان يواجه إفريقية، كان تشكيلاً من قضبان الحديد. وكان البيت مليئاً بالأثاث الأسود الغريب والأثاث المطلي بالذهب.

وقالت لي: "هذا البيت رائع الآن، شاطئك هو حديقتك. وسيذهب في مقابل ثمانين مليون راند، على الأقل". (في العام 2005 ذهب بيت مشابه في مقابل 150 مليون راند.)

وحتى العام 1995، فإن الكثيرين من الأجانب الذين اشتروا أماكن مثل هذه استخدموا "الراندات المالية": وهي راندات مالية كانت قد بيعت بسعر رخيص في أسواق المال في الثمانينيات من1980 من نظام حكم كان يعمل يائساً من أجل اجتذاب الاستثمار وإحباط العقوبات. وهذه الإجراءات كانت تعني أن قيمة الممتلكات كانت قد خفضت تلقائياً بنسبة تصل إلى الثلث، وهو الأمر الذي يجعل المشترين هم المستفيدين من التمييز العنصري مرتين. ومنذ ذلك الوقت، فإن تخفيض قيمة الراند في مقابل الإسترليني قد جعل أملاك جنوب إفريقية تبدو صفقة للمرة الثانية. وزيادة على ذلك، فإن ثروة الملاّك وامتيازاتهم هي الآن مضمونة بالديمقراطية

الجديدة، التي توفر الشرعية: أي، رفع "الوصمة". وبالنسبة إلى السكان المقيمين في كليفتون وكونستانتيا، فإن الحياة لم تتغير. وفي جولتنا، كان العديدون من أغلبية السكان يرون: وهم خدم في طريقهم إلى قلاع الثروة وخارجين منها.

وقالت بام غولدنغ: "هل تعلم أن هذا البيت هو بالفعل محمي من الريح وأن الأثاث الشرقي يأتي معه؟ ضع سيارتك البورش في المرآب فقط، وبسرعة، يكون لديك صفقة مطلقة، استناد حقيقي مقيم بوظيفة مهنية ذات راتب جيد وأسلوب حياة، هنا تماماً في جوهرة إفريقية".[7]

شكرتها وسقت سيارتي نازلاً التل إلى مركز المدينة، على طول طريق دو وال درايف، التي تحاذي أرضاً يباباً وتلتف حولها، ولم أكن قد لحظتها في اليوم الذي وصلت فيه. إنه مكان غريب، وكأن زلزالاً قد ضرب هذه الأرض هناك قبل زمن طويل ثم لم تستصلح الأرض ثانية أبداً. هذه كانت هي المنطقة السادسة.

وكانت كنيسة مورافيا الصغيرة، والمسجد، والكنيستان ما تزال جميعها قائمة، وكان هناك مبنى بلا ملامح هو كلية فنية. وفي ماعدا ذلك، فقد كانت الخطوط المستعصية على الطمس التي مثلت آساس البيوت والشوارع والملاعب ما تزال باقية، ومغطاة بالعشب، مثل موقع هادئ للآثار لم يزعجه أحد. وبعد أن أخليت المنطقة السادسة من مجتمعها، بقيت طوال سنوات عديدة مدينة أشباح. لقد حاول نظام الحكم تنميتها، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على بقاء اهتمام "المطورين" البيض، الذين وجدوا خططهم متوقفة في عدد كبير من التحديات أمام المحاكم. كان هنا شيء ما يوحى بالتحدي، شيء موجود في جذور بيوت الناس وحياتهم، وكأن الأرواح كانت في حالة الاستعداد.

وبالتأكيد، فقد تصاعدت الأصوات من خلف الجبل الطاولة، من المكان الذي ألقي فيه بأصحاب المنطقة السادسة كالنفايات، وهو المكان الذي سماه الكاتب جون ماتشيكيزا "الجانب الأسود من القمر": في أماكن سميت لانغا (الشمس) ونايانغا (القمر)، وأثلون، ماينبيرغ، وغوغوليتيو، وخاييليتشا وسهل

ميتشيلز. هذه كانت مسطحات الكاب (كاب فلاتس)، وفيها حملت الشوارع الأسماء القديمة للمنطقة السادسة – هانوفر بارك، تاين كورت ولافندرهيل – والعائلات الممزقة المذرذرة التي سكن العديدون منها في "مساكن مؤقتة"، كانت تضربها ريح الشمال وتنتابها حالة الخوف الدائمة والحصار والاغتراب.[8]

وولدت منطقة المسطحات الفقر، والمخدرات، والجريمة الخطيرة. وأسماء عصاباتها الآن شائنة سيئة السمعة: "الأمريكيون"، و"المعايش القاسية" و"الصبية المثيرون جنسياً". وكانت سلطة تلك العصابات قد وصلت حداً أدى بفريق كيب تاون، الذي تقدم بطلب لاستضافة الألعاب الأولمبية لعام 2005 ولم ينجح، إلى أن يطلب"المساندة" من العصابات في المحافظة على السلم حين جاءت اللجنة الأولمبية في زيارتها. وبالنسبة إلى كثيرين من الناس، فإن الشرطة قد فقدت الثقة بسبب سلوك رجالها في أثناء سنوات حكم التمييز العنصري حين استخدموا العصابات لتوزيع عقوبة الضرب.

وهكذا فالثقافة التي كانت من قبل ثقافة حية صارت قشرة مشتقة من نفسها. ويمكن للمسطحات (فلاتس) أن تكون لوس أنجيلوس الشرقية، مع رسومها الجدارية التي تثني على الأموات من عصابات الأمريكيين المحبين لموسيقى العنف والهذرمة وأغاني كراهية النساء ورسوم ونقوش "لا تتدخل معي" وموسيقى العنف والهذرمة الكارهة للمرأة وكلام الحي (الغيتو) الأمريكي، مثل التحية بكلمة، "يو" و"... أمك". وقد كتب الصحافي هازل فريدمان يقول إن "تراث المنطقة السادسة، مثل مدينة صوفيا في جوهانيسبيرغ [مجتمع أسود مطرود]، ربما كان تكاملاً ثقافياً في وجه التمييز العنصري. والتراث اليوم هو تراث الدم والدموع مع وجود القليل جداً للموت من أجله والكثير للموت منه. وإذا كان هناك القليل غير ذلك، فيبقى هناك ثقافة الإلهام... للخروج بأي تكلفة".[9]

في 10 كانون الأول/ديسمبر من العام 1994، وهو عام الديمقراطية، افتتح المقيمون السابقون في المنطقة السادسة متحف المنطقة السادسة في البعثة الميثودية المركزية في مركز كيب تاون. ووضعوا على الأرض خريطة عملاقة كتب عليها المقيمون، ومايزالون يكتبون، أسماءهم على البقعة التي كانوا يعيشون فيها. وإلى

جانب ذلك، وفي حزمة على الأرض وهي معلقه من بهو الطابق الأول، توجد لفة من قماش الكتان يكتبون ملاحظاتهم عليها. وقد كتبت إدنا براون: "بوابات الذكريات لا تنغلق أبداً". وفي السبعينيات من 1970 كُلف أحد المسؤولين في المدينة بمهمة أخذ لوحات أسماء الشوارع القديمة المصنوعة من الصفيح والخروج بها إلى خليج الطاولة وقذفها في المحيط الأطلسي، ولكنه بدلاً من ذلك احتفظ بها في بيته، وحين تم الإعلان عن خطط إقامة المتحف، كشف عن مجموعته. وتوجد الآن اللافتات الصدئة معلقة فوق الخريطة إلى جانب شعر لانغستون هيوز*:

استمسكوا بالأحلام بشدة
لأن الأحلام إذا ماتت
صارت الحياة طائراً مهيض الجناح
لا يقوى على الطيران

وفي المتحف، قابلت نور إبراهيم، وهو مسلم كان قد صنف "ملوناً" لأن جده لأبيه كان هندياً وجدته لأمه إسكوتلندية. وقال لي: "كانت المنطقة السادسة رؤية لما كان يمكن أن تكون عليه جنوب إفريقية. وذلك هو السبب الذي دمروها من أجله. لقد بكيت في اليوم الذي جاءت فيه الجرافات". وقد نقل إلى أثلون في المسطحات (الفلاتس) في العام 1975 وأخذ معه حمامات السباق التي كان يملكها. وفي ذلك المساء، كما يستذكر في مذكراته، قصة نور، لم يكن هناك أي أثر يشير إلى طيوره. وبعد ليلة لا نوم فيها، ساق سيارته إلى شارع كاليدون في المنطقة السادسة، وفي هذا المكان "رأيت منظراً هزني حتى أعماقي: حماماتي، كلها 50 حمامة، كانت متجمعة على البقعة الفارغة التي كان يقوم فوقها بيتنا".[10]

بعد العام 1994، تأخرت استعادة المنطقة السادسة نتيجة حدة المرارة في صفوف الناس أنفسهم، الذين انقسموا بين المستأجرين وملاكي الأملاك السابقين المهتمين بالتجديد، وبين المقيمين السابقين ونسل أولئك الذين نقلوا من المنطقة. بمعنى

* لانغستون هيوز (1902 – 1967) كاتب أمريكي أسود. (المترجم)

واحد، كان الموقف هو آخر وقفة للتمييز العنصري.

في 11 شباط/فبراير من العام 2004، تسلم أول مقيمين جديدين في المنطقة السادسة المستصلحة من أعمار 80 عاماً و90 عاماً إبراهيم مرات ودان مدزابيلا مفاتيح بيتيهما الجديدين في شارع الكنيسة الصغيرة (تشابيل ستريت) من الرئيس تابو مبيكي. وكان ذلك التاريخ هو العام الثامن الثلاثون من اليوم الذي أعلن فيه پي. دبليو. بوتا المنطقة السادسة منطقة للبيض فقط وكانت فكرة العودة نفسها قد بدت، لمعظم الناس، حلماً صعب التصديق.

لقد أُرغم ما يقارب 3.5 مليون جنوب إفريقي على الخروج من بيوتهم وأرضهم بين 1960 و1982. وهذا تقدير محافظ. ومعظمهم ما زال ينتظر العدالة والتعويض عن هذه الجريمة التي كانت أطول جريمة ارتكبها التمييز العنصري. ومات عشرات الآلاف من الأطفال حين نزعت ملكية عائلاتهم ومزق شملها بقوة وألم. وقد أخبرني مايكل لابسي، وهو راهب أنغليكاني وعامل نشيط في المؤتمر الوطني الإفريقي. بالقول: "كان لدى جنوب إفريقية حلها النهائي الخاص". وكانت يداه وواحدة من عينيه قد نسفتا برسالةٍ قنبلةٍ من شرطة الأمن.[11] إن الرؤساء فيرورد، وفوستر، وبوتا قد أرسلوا أمة إفريقية كاملة إلى سجن للعمل القسري وبقي مخفياً عن بقية العالم وهو باقٍ إلى حد كبير مخفياً عن التاريخ. فبوتا لم يلاحق أبداً عن جرائمه، وفي وقت كتابة هذا الكلام، يعيش بوتا حياته براحة.

وقد وصلت سياسة "الإزالات" التي اتبعها نظام التمييز العنصري إلى حضيضها مع المهزلة المرعبة عن "البانتوستانات"، وما زعم أنها "أراضي الوطن القبلي" وفيها يمكن أن يستمر "التطوير المنفصل" مع البهارج الزائفة من الحكم الذاتي. وفي العام 1970، أسس قانون مواطنية البانتو عشرة "بانتوستانات" في أجزاء البلاد التي كانت أقلها خصوبة وأشدها بؤساً. ومعظم الناس الذين أرسلوا إلى "أرض الأوطان" هذه لم يكن لهم أي علاقة بها، وفي الوقت نفسه، ألغيت مواطنيتهم في جنوب إفريقية. وكان الهدف النهائي هو ترحيل كل الشعب الأسود من جنوب إفريقية.

ولم تكن "البانتوستانات" مجرد أراضي كب النفايات. كانت مثلها مثل الاحتياطات المحلية التي أقيمت في العام 1913 والعام 1936، مصممة من أجل توفير أرخص عمالة ممكنة. وسمح وجودها – أربعة منها كانت مخصصة باسم "بلاد أجنبية" – للصناعيين البيض بالتظاهر أنهم لا يتحملون أي مسؤولية نحو عمالهم السود، الذين صاروا الآن، وبسرعة "عمالاً مهاجرين". ولم يكن الآن ضرورياً أن يُدفع لهم ولو أقل راتب للمرضى وأقل رواتب التقاعد، دع عنك الدفع من أجل العناية الصحية والمدارس لأطفالهم. وقد كتب باتريك بوند في تكلم يساراً وسر يميناً يقول: "كان الدرس المركزي من هذا الجانب العصيب من سياسة التمييز العنصري هو أن الرأسمالية نهبت مناطق (البانتوستانات) نهباً منهجياً".[12]

في شرق كيب تاون، في منطقة "بانتوستان" سابقة عرفت باسم سيسكي، توجد ديمبازا. وفي كانون الأول/ديسمبر من العام 1967، كُبّت هنا أول سبعين أسرة. وكان على عشرة آلاف نسمة أن يتبعوا، وكان معظمهم من النساء والأطفال المحملين تحميلاً مكتظاً في شاحنات كالحيوانات. ووصلوا في الليل وواجهوا منحدر تلال في مهب الرياح، من دون ماء، ولا كهرباء، ولا مأوى. أحدهم كان ستانلي مبالالا، الذي كان يبلغ الثانية عشرة من العمر. وأخبرني أنه يتذكر غابة صارت حطباً للنار في أثناء الشتاء الأول. وعاش الناس في الخيام وفي بعض الأخواخ المبنية من الخشب مع سطوح من الزنك والأرضيات القذرة. وللواصلين لاحقاً صُنعت صناديق من الأسبيستوس والأسمنت وكانت حارة جداً في الصيف وباردة رطبة في الشتاء وهو ما أدى إلى هلاك الصغار جداً والكبار جداً في هذه الصناديق. وفي العام 1969، شرح هذه السياسة المتحدث نيابة عن رئيس مكتب مندوب شؤون البانتو فقال: "نحن نقوم بإسكان الناس الفائضين عن الحاجة [في ديمبازا]. فهؤلاء الناس لا يستطيعون تقديم خدمة منتجة في منطقة حضرية".[13]

من الناحية الطبيعية، ديمبازا تسترعي الانتباه. ففي مركزها توجد مقبرة الأطفال، وكأن مجتمعاً كاملاً قد تم ترتيبه حول قبور صغاره، فمعظم الموتى

كانوا من الأطفال الرضع تحت عمر السنتين. ولم تكن هناك شواهد للقبور. هناك لعب بلاستيكية بين الأعشاب والزجاج المهشم من أوعية الورود المبعثرة، وهناك ترعى المواشي الهزيلة. وأنا تعثرت هناك بأنابيب الألمنيوم المرصعة بقطع من الأسمنت المسلح المكسور، التي كانت تستخدم شواهد قبور. على واحد منها خربشة تقول: "العزيز جاك، عمره ستة أشهر، نفتقده بشدة، توفي في 12 آب/أغسطس 1976". معظم الأطفال ماتوا من أمراض كان يمكن منعها، أو أنهم جاعوا حتى ماتوا. خمسمائة طفل على الأقل مدفونون هنا، أو كانوا مدفونين هنا. فقد أخبرني ستانلي أن أمطاراً غزيرة هطلت في السبعينيات من 1970 وجرفت معها الكثير من القبور بعيداً، وظهرت هياكل عظمية صغيرة عند أسفل التل. وقال: "لم يكن لدينا المال قطعياً لعمل أي شيء في هذه الأرض المقدسة".

في العام 1978، صار معسكر الاعتقال الريفي هذا، بحسب كلمات نظام الحكم "خزانة عرض لفرص الاستثمار" (عمالة رخيصة)، وترتبت المصانع مثل مدرج للمتفرجين يحيط بمقبرة الأطفال. ومنذ ذلك الوقت، أغلقت معظم المصانع أبوابها وصار معظم الناس عاطلين عن العمل. ستانلي، الذي بقي على قيد الحياة، فقد عمله في العام 1996، بعد عامين من حصوله على حق الاقتراع.

علمت لأول مرة عن ديمبازا في العام 1972 بعد قراءة الشعب المنبوذ، بقلم كوسماس ديزموند. وهو صوت مستقل استقلالاً قوياً تحدث لصالح سكان جنوب إفريقية الذين كانوا بلا وطن وبلا أرض. وكان كوسماس في ذلك الحين راهباً ملحقاً من ليفربول في بريطانيا. واختار أن يمكث وترك الرهبانية، ولم يمض وقت طويل حتى ألقي القبض عليه بسبب نشاطه. واليوم، يتابع كوسماس التحدي، كما يقول: "لشعارات القوة، كائناً من كان في السلطة".

في آذار/مارس من العام 1969، انطلق كوسماس ليكشف عن معسكر سجن لأعمال السخرة (غولاغ). سافر أربعة وعشرين ألف ميل، متجولاً جيئة وذهاباً في كل جنوب إفريقية وداخلاً في "عالم خفي... متاهة المجتمعات المحطمة، والعائلات المحطمة والحياة المحطمة التي هي سياسة الإزالات التي أقدمت عليها حكومة جنوب

إفريقية".[14] وفي البداية، واجه صعوبة في تحديد مواقع كانت تدعى "معسكرات إعادة التوطين". وكتب يقول: "إن واحداً من أشد الملامح استثارة للأسى [في الرحلة] هو الجهل، واللامبالاة، والخوف والشك الذي أبداه كثيرون جداً من الناس البيض الذين تحدثت إليهم. وفي الغالب، وعلى سبيل المثال، كان رجال الدين البيض غير واعين حتى بمجرد وجود قرى إعادة التوطين داخل حدود أبرشياتهم، في حين كان آخرون يعرفون عنها ولكنهم لم يروا في ذلك شيئاً خطأً".[15]

في العام 1969، كان أول ثلاثة عشر ألفاً تقريباً من الناس قد كُبوا في لايمهيل في ناتال (هي الآن كوازولو ناتال). ومثلهم مثل أولئك الذين كبوا في ديمبازا، بحسب نظام الحكم، فقد "صاروا، لسبب أو لآخر، غير صالحين بعد ذلك للعمل أو أنهم فائضون في سوق العمالة". وفي كتاب الشعب المنبوذ، وصف كوسماس صدمته لدى رؤيته لايمهيل فقال:

... مكان بائس ومهجور. ليس هناك ما يكفي من الماء ولا ما يكفي من الأرض ولا لمجرد الزراعة اللازمة للعيش الذي يسد الرمق. وليس هناك صناعة ولا عمل في نطاق القدرة على الوصول يومياً. ويكافح السكان ضد المرض على حافة الموت جوعاً. ومن المستحيل القول أيهما هو الأشد إزعاجاً التدهور الجسدي أو التعذيب العقلي من العيش في مثل هذا المكان.[16]

وكذب نظام الحكم بشأن تفشي التيفوئيد، لا بل أنكر أن يكون أي واحد قد مات في "ترحيل المتطوعين". وفي شهر واحد، كما كتب كوسماس، مات ثلاثة وثلاثون شخصاً من الالتهاب المعدي المعوي فقط. وقد صور ستين قبراً جديداً في المقبرة، ومعظمهم كان من الأطفال. "وأنا رأيت الأطفال المصابين بالهزال والحمى ورأيت آباءهم كسيري الأفئدة، وبرغم كل ذلك لم يكن هناك رسمياً أي سبب يدعو للإنذار بالخطر أو للعمل".[17]

بعد ثلاثين عاماً، سافرت مع كوسماس عائداً إلى لايمهيل. وسقنا سيارتنا عبر الريف الذي بدا مقلع حجارة عملاقاً، وعلى بعد كانت تظهر الصور الظلية

لسيارات محطمة ولنساء يسرن صفاً على سرج إحدى التلال، وهن يحملن الماء من المكان الذي كانت تشرب منه المواشي وتلقي فيه ببرازها. والظلال الصغيرة التي مررنا بها على الطريق كانت تخص الأطفال الذين أكدى نموهم وتخص أمهاتهم وهن يمشين، ويحملن. في جنوب إفريقية "الجديدة"، ينتشر نقص التغذية وسوء التغذية على نطاق واسع. ونصف السكان تقريباً يعيشون في فقر، مع اثنين وعشرين مليون نسمة يوصفون بأنهم "يائسون" ومع "5.3 مليون من أطفال جنوب إفريقية يعانون من الجوع". ووفقاً لبرنامج التنمية من الأمم المتحدة، فإن جميع مؤشرات الفقر والبطالة قد أظهرت زيادات ذات مغزى منذ العام 1995. 18 إن لايمهيل شعار يرمز لهذا الحال، مثلما كانت بالنسبة إلى التمييز العنصري.

إن حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي تضمن منحة مساندة للطفل بقيمة 180 راندا في الشهر تعطى للأطفال الفقراء تحت عمر الرابعة عشرة. وكانت هذه المنحة قد زيدت من 160 راندا كانت كافية فقط، بحسب التحالف من أجل حق الأطفال في الأمن الاجتماعي، لشراء صرّة صغيرة من السكر، والفاصولياء، والملح، ووجبة ذرة مطحونة، وحليب مجفف، وقالب من السمن،ورغيف خبز، ومرطبان من زبدة الفستق، وأربع علب صغيرة من السمك البحري الصغير، وصرّة من مفروم الصويا، وتفاحة واحدة، وبرتقالة واحدة، وبصلة واحدة وحبة بطاطا واحدة، في كل الشهر.[19]

وبالنسبة إلى الأطفال لكي يكونوا مؤهلين لنيل هذه المنحة، يجب أن يملكوا شهادة ميلاد. وكثيرون من الأطفال الريفيين لا يملكون شهادة ميلاد وتكاليف الحصول على مثل هذه الشهادة – تكاليف الحصول على إفادة كتابية مشفوعة بقسم، وتكاليف السفر إلى أقرب مكتب رعاية – هي تكاليف تفوق دخل الكثيرات من الأمهات، اللواتي يكن عادة المعيلات الوحيدات. ومعظمهن لا يحسنّ قراءة استمارة الطلب، دع عنك إكماله. إنهن خليفات "الشعب المنبوذ".

في تموز/يوليو من العام 2003، أعلنت الجريدة اليومية للحزب، وهي المؤتمر الوطني الإفريقي اليوم، أن "تقدماً ضخماً [هكذا] قد جرى في بناء دولة

ديمقراطية، تعالج الفقر والاهمال، وتضع الاقتصاد على مسار النمو المستدام، وترسخ السلامة والأمن، وتضع جنوب إفريقية في مقدمة تنمية إفريقية والعلاقات الكونية العادلة..".

ويستشهد تشارلز ميث وروزا دياس من جامعة كوازولو ناتال بهذا الزعم في دراستهما، التي تمثل نقطة تحول، وتدور حول الفقر في جنوب إفريقية. وعلى العكس من ذلك، يقولان:

إن ما يقارب أربعة ملايين نسمة التحقوا بصفوف الذين يعيشون في فقر، في المدة 1999–2002. [وهذا يشكل] تقريباً ثلثي عدد الزيادة في السكان في السنوات الثلاث. ومثل هذه النتيجة ليست غير متوقعة، إذا أخذت بالحسبان الزيادة الكبيرة في عدد العاطلين عن العمل... وتبدو مزاعم الحكومة في إنها قد حققت "تقدماً ضخماً في معالجة... الفقر والإهمال" مزاعم ضعيفة نوعاً ما في وجه هذا الصعود الضخم في البؤس الإنساني.[20]

كان المطر يهطل حين وصلنا كوسماس وأنا إلى لايمهيل، وضرب المطر بالقدور والمقلايات التي تراصفت في صف في شوارع الطين. وكان الناس ينتظرون في صف طويل من أجل دورهم عند أنبوب ماء، وكان الكثيرون منهم قد يئسوا وتركوا المكان وذهبوا إلى مكان آخر يستطيعون فيه أن يملؤوا سطولهم بالماء الملوث. لم يكن هناك أن نظافة صحية عامة، وكانت الطاقة الكهربائية تأتي وتنقطع.

قابلَنا رجلٌ يفيض بالحيوية والاحباط، هو سابيلو موليفي، وذلك في مركز لايمهيل للمشورة والموارد. كان يلبس قيمصاً على شكل حرف تي (T) يقول"دعنا نتحادث !" وطوال عام أدار مكتبه من مكان هاتف عملة عام. وقال: "يفترض أن نكون أحراراً، ولكن أين روح الحرية؟ يجب أن يعامل ضحايا الترحيلات القسرية معاملة خاصة فريدة. إن نظام حكم التمييز نفسه في آخر سنواته وعد بالماء المجاني وبالمساكن. والناس هنا الآن واقعون بين فكي ملزمة، فالحكومة ترفض أن

تعطيهم حق الملكية في بيوتهم، ومن دون سند التمليك، لا يستطيعون الاستدانة من المصارف. وهكذا فإن فقرهم مؤكد. وليس ذلك هو ما كانوا قد اقترعوا من أجله".

هناك أناس قال لهم مانديللا حين أطلق سراحه: "إن آمالكم وأحلامكم توشك أن تتحقق". وبالنسبة إلى فقراء جنوب إفريقية الريفيين، وهم أفقر الناس تماماً، كانت الآمال والأحلام تنحى جانباً بشكل منهجي. ويقول دستور المؤتمر الوطني الإفريقي إن التعويض عن الأرض ورد الحقوق يجب أن يعود ليبدأ من تاريخ قانون الأرض في العام 1913، وهو القانون الذي سلب معظم جنوب إفريقية من أكثرية شعبها وأعطاها إلى البيض. وخصص للسود 7 بالمائة فقط من كل الأرض الزراعية – في بلاد لا تكاد تصل نسبة الأرض الصالحة للزراعة إلى 13 بالمائة. ثم أضيفت إليها نسبة 6 بالمائة أخرى في العام 1936. وكان المزارعون البيض آنذاك يمسكون بأكثر من نسبة 86 بالمائة من الأرض الزراعية. وفي العقد الأول من الديمقراطية، كانت نسبة أقل من 4 بالمائة من الأرض الزراعية المملوكة للبيض هي النسبة التي أعيدت.[21]

وقال كوسماس: "إن ما فعله الدستور هو ترسيخ الحق بالملكية الشخصية. وأولئك الذين يمتلكون الأرض منحوا الحق في تحويلها إلى آخر، أو بيعها أو التمسك بها. وللسود الحق في شراء الأرض، ولكن عليهم أن يجدوا شخصاً ما يرغب في بيعها لهم، وهو أمر يضاف كذلك إلى أن عليهم أن يجدوا المال. وذلك يعني أن أقل من ستين ألف مزارع أبيض مازالوا مستمرين في امتلاك أفضل أراضي البلد. وفي الواقع، فإن معظمهم لا يملك الأرض فعلاً، لأن ملكيتهم مرهونة لدى مصرف الأرض، وهو مصرف الحكومة في الأساس. ولو أن الحكومة منعتهم من فك الرهن، لمضي المدد المحددة للدفع، لكانت الأرض قد تم تسليمها. ولكن الحكومة تقول: لا، نحن نحتاج إلى هؤلاء الناس لينتجوا... وفي الحقيقة، فإن معظم زراعتنا تأتي من ثلاثة بالمائة لاغير من الأرض الصالحة للزراعة، وهي مملوكة من مجموعة قليلة من المزارعين التجاريين البيض الأغنياء غنى فاحشاً. تلك هي الكيفية

التي كان عليها النظام تحت التمييز العنصري، تاركاً الريفيين السود أسرى في قبضة الفقر".

حين سقنا سيارتنا نازلين عن الجبل، بعيداً عن أرض الفقراء جداً، كنا نستطيع أن نرى أرض الأغنياء جداً. فالأرض المتقوسة، الغليظة التي كانت تحيط بلايمهيل استسلمت إلى حديقة واسعة مملوكة للبيض، وكأننا حُمِلنا بشكل غامض إلى الحقول الخضراء الموفورة النماء في جنوب إنجلترا.

في أيلول/سبتمبر من العام 2005، قُدّمت دراسة شاملة إلى برلمان جنوب إفريقية وقارنت هذه الدراسة معاملة المزارعين السود الذي كانوا بلا أرض تحت سياسة التمييز العنصري بمعاملتهم اليوم. ففي أثناء العقد الأخير من التمييز العنصري، تم طرد 737.000 نسمة من الأرض الزراعية المملوكة للبيض. وفي العقد الأول من الديمقراطية تم طرد 942.000 نسمة. والنصف تقريباً من أولئك الذين أزيحوا بالقوة كان من الأطفال والثلث منهم تقريباً كان من النساء.[22] وكانت حكومة مانديللا قد سنت قانوناً في العام 1997، هو قانون أمن الحيازة، وكان القصد منه أن يحمي هؤلاء الناس وأن يضع حداً لعمل المياومة والسخرة. في ذلك العام، أخبرني مانديللا بالقول: "لقد عملنا شيئاً ثورياً، ولم نتلق عنه أي اعتراف بالفضل قطعياً. فليس هناك بلد منح فيها العمال المستأجِرون الأمنَ الذي منحناه لهم... فالفلاح لا يستطيع أن يطردهم".

وثبت أن القانون شكلي. فإن تسعة وتسعين بالمائة من أعمال الطرد لم تصل إلى المحاكم قطعياً. وبعض الفلاحين البيض يستمرون في الإساءة إلى العمال السود بالحصانة التي منحها التمييز العنصري للبيض. في العام 1997، سألت أحد المزارعين، وهو وين كريتسمان، الذي كان يملك آنذاك 920 هكتاراً في ناتال، لماذا استمرت أعمال الطرد، فقال: "إن هؤلاء الناس يملكون عملاً بديلاً، ولكنهم لا يريدونه. وأنا أعطيهم إنذاراً لمدة سنة قبل أن أطردهم".

وسألته: "لماذا تطردهم؟"

"يجب عليهم أن يدفعوا أجرة المسكن الذي يحصلون عليه، وإذا لم يدفعوا، يجب عليك أن تتخلص منهم".

"ولكن مسكنهم أساسي، إذا قلنا أقل ما يقال في هذا. فلماذا تكلفهم بدفع الأجرة عن هذا المسكن في حين أن أجورهم منخفضة جداً؟"

"أنا أدفع رسوم الخدمة. فليست هي مشكلتي إذا كانوا لا يستطيعون الوفاء بهذه الأشياء".

"هناك الآن قانون ضد طرد الناس من دون إمهال".

"انظر، إن الطرد اليوم أسهل مما كان عليه سابقاً".

وجدت مفيندا غيزا يعيش مع عائلته المكونة من ثمانية أفراد في كوخ جدرانه من صناديق ورق مقوى شركة سبار وأرضيته من روث الحيوانات وفيه مدفأة مفتوحة في الوسط. ووصف لنا رحلته من الإقطاع، وقال: "لقد كنت مستخدماً لدى والد المزارع الأبيض. وبقيت هناك أربعين عاماً تقريباً، وقبور عائلتي موجودة على منحدر التل. وحين جاءت الديمقراطية، قررت أن أحسن نفسي، من أجل أسرتي. عدت إلى المدرسة وصرت في النهاية قادراً على القراءة والكتابة بشكل مناسب. واتصلت باتحاد الطعام والعمال المتحالفين، وبدأ الإزعاج حين انتخبت لأكون مستشاراً للمجلس الريفي الانتقالي. لقد قذف بنا جميعنا إلى الخارج، ولا نستطيع أن نصل إلى المزارع ولو لمجرد الرد على رسائل المحامين".

وتقول إحدى النساء الريفيات، في تقرير إلى البرلمان: "لقد قتل زوجي وكان علي أن أغادر لأن المزارع لم يرد نساء من دون أزواج أو آباء لا يستطيعون العمل". وتقول امرأة أخرى: "أراد المزارع الأبيض أن يعتني أطفالي بعنزاته وأغنامه ورفضت، ولذلك ضربني وقال إن علي أن أخرج من المزرعة". وقال واحد من مؤلفي التقرير، وهو، مارك ويجيريف: "إن نزع ملكية سود جنوب إفريقية استمر بكامل شدته في جنوب إفريقية بعد التمييز العنصري... معزِّزاً بذلك ملكية المزارع في أيد أقل".[23]

وينص ميثاق الحرية الخاص بالمؤتمر الوطني الإفريقي على أن "تحديد ملكية الأرض على أساس عرقية سوف ينتهي وسوف تقسم الأرض كلها على أولئك الذين يعملون". وحين جاء المؤتمر الوطني الإفريقي إلى السلطة في العام 1994، أعطيت "أولوية" التعويض ورد الحقوق عن الأراضي نسبة 0.3 بالمائة من الميزانية القومية. وفي العام 2005، كانت النسبة مازالت أقل من 1 بالمائة.24 وحين حضر رئيس زمبابوي، روبرت موغابي، الاحتفال ببدء الفترة الثانية لتابو مبيكي رئيساً لجنوب إفريقية، قدم له الجمهور الأسود ترحيباً حماسياً ونهض الجمهور واقفاً.

وقد لاحظ الكاتب برايان روسترون وقال: "كان هناك مفاجأة ضخمة وخوف كبير في بعض الأوساط، ومع ذلك فربما كان هذا الترحيب تعبيراً رمزياً عن التقدير للقائد الإفريقي الذي يعتقد كثيرون من السود الفقراء، أنه أعطى أولئك البيض الجشعين عقوبة عادلة طال انتظارها أكثر مما هو ترحيب يوافق على استبداد موغابي".

لقد كان إنذاراً أيضاً.[25]

مغارب الشمس في جوهانسبيرغ بهيجة رائعة: إنها تتوهج حمراء كالفرن، ثم تتوهج برتقالياً ويرتسم البرتقالي في ضربات فرشاة عريضة عبر السماء الإفريقية الشاسعة. ويقول المقيمون: "هي مثل ذلك بسبب التلوث والغبار". والمرارة الحلوة لجنوب إفريقية "الجديدة" موجودة دائماً في الفكاهة وهي في الوقت نفسه سخرية من النفس وأسى ساحق للقلب، إذا كانت فكاهة مطلقاً.

حين قابلت إديث فينتر، وهي "شخصية بارزة" في عالم الأزياء في جوهانسبيرغ، كانت تزور مؤسسة الأزياء التي تعمل فيها، وهي الشبان (ذا بويز)، في سوق روزبانك مول. ومن أجل "التجربة"، لبست مجوهرات كانت تقدر بأنها تساوي 100.000 جنيه إسترليني.

وقالت لي: "لقد تم اختياري أفضل امرأة لابسة في جنوب إفريقية، وأنت تعرف، فالناس ينتظرون ليروا ماذا ألبس لأن هناك دائماً شيئاً مختلفاً".

واستفسرت: "أنت لا تملكين خزانة من تلك الخزائن التي كانت لملابس إيميلدا ماركوس، أليس كذلك، وأنت تعرفين، مع كل تلك الأحذية؟"

"نعم، أنا أملك، نعم، أنا أملك. أنا أملك كل الملابس وكل الأحذية. أملك الكثير".

"وهكذا فإن رقماً قياسياً عالمياً آخر قد تم تجاوزه؟"

"بلا أدنى شك".

"لماذا يكون من الصعب أن نجد أي شخص أبيض ساند التمييز العنصري؟"

"جميعنا كنا هناك... وكثير من الناس ساندوه، ولكن لكي تجدهم، فسوف يكون عليك أن تنظر تحت كل سرير وتحت كل شجيرة، وكل صخرة. نعم!... شخصياً، أنا لم أسانده. وأنا شعرت دائماً بأنني غير مرتاحة".

"هل يعرف الناس البيض كيف يعيش الناس السود الآن؟"

وقاطعني واحد من الشبان وقال: "نحن نعرف ولكننا لا نذهب! وأنا أعني، هل أنت مجنون؟"

وقالت إديث: "في الواقع، أنت ستجد كثيراً من الناس السود، الذين يستطيعون أن يحتملوا، وهم الآن انتقلوا إلى مناطق البيض، التي تعتبر خرافية بالنسبة إليهم".

هوتون خرافية بالنسبة إليهم. فهي ضاحية من أغنى الضواحي في جوهانيسبيرغ، وهي لا تنسى لجدرانها: فهي جدران طويلة، وعالية وبيضاء تستحضر إلى الذهن ملاحظة بريتين بريتينباخ حول "دهان نوافذنا بالأبيض لنحتفظ بالليل في الداخل". والخدم الموجودون في كل مكان يسرعون جيئة وذهاباً، وكما في كونستاتيا، فليس هناك أناس بيض في الشوارع. والجدران تعلوها أسلاك كالشفرات، وهي حسب زعمهم اختراع جنوب إفريقي، وتعرض لافتات تقول: "لقد حُذِّرتم – رد فعل مسلح 24 ساعة". وخلفها توجد كلاب ألزاسية كبيرة كالذئاب.

كان مساء ربيعياً مبكراً في سينت ديفيد رود (طريق القديس داوود)، وكان العشب يلمع من رش العديد من الرشاشات في الوقت الذي وصل فيه أوائل الضيوف. وتلاقت سيارات المرسيدس وسيارات بي أم دبليو التي يقودها سواقون ويجلس فيها في الخلف ركاب من ذوي الوجوه السود تلاقت في حفل في حديقة في الرقم 050 وكان معظم الضيوف رجالاً يلبسون بزات الأعمال، ومنهم رجال بيض وسود على حد سواء من الذين يعرف بعضهم بعضاً على ما يبدو وقد تصنعوا دماثة غير مستيقنة عبر الانقسام العرقي القديم. وكانت الحفلة تقام من منظمة تسمى بزنيس ماب (خريطة الأعمال) وهي منظمة تعطي، بحسب كتيبها، "إرشاداً عن... التمكين الاقتصادي الأسود".

وكان ضيف الشرف هو سيريل رامافوسا، الأمين العام السابق للاتحاد الوطني لعمال المناجم، والرجل الذي أمسك مكبر الصوت (الميكرفون) لمانديللا حين أخبر الأمة السوداء في اليوم الذي أطلق فيه سراحه بأن "آمالكم وأحلامكم على وشك أن تحقق". ورامافوسا، الذي كان المفاوض الرئيسي "للحلول الوسط التاريخية" للمؤتمر الوطني الإفريقي، هو الآن رجل أعمال مليونير متعدد الملايين. وحين وصلت إلى مطار جوهانيسبيرغ، كان هناك ملصق ضخم عليه صورة له وهو يبتسم ابتسامة عريضة والكلمات تقول: "سيريل يدعوكم لتشاركونا اهتمامنا في الجعة، والطعام، والأملاك العقارية، والصحف". وكانت هذه إصدار حصة لشركة تسمى استثمارات إفريقية الجديدة. وهي شركة خسرت بعد أن أصدر سيريل دعوته مباشرة أكثر من نصف قيمة حصتها.

وكانت رسالة سيريل على المرج في هوتون هي أن الناس السود كانوا يحتاجون إلى "التقمص الوجداني مع خصومهم السابقين". التقمص الوجداني الآن مع أغنياء رجال الأعمال البيض، ومن أجل تحول سيريل على هذا الشكل الممسوخ فإنه يلقى الثناء والموافقة من البارونة تاتشر: وهي التي وصفت مانديللا سابقاً ومعه المؤتمر الوطني الإفريقي بأنهم "إرهابيون".

سيريل بطل، ويقول بعضهم إنه تجسيد "للتمكين الاقتصادي الأسود" وهو الموضوع الذي يصفه بأنه "فلسفة" لجنوب إفريقية الجديدة. وما تعنيه هذه الفلسفة

هو إدخال مجموعة صغيرة من السود في مؤسسة البناء البيضاء في البلد، وهي التي تستمر في الهيمنة على الحياة الاقتصادية. فمن المصارف إلى التعدين، ومن التصنيع إلى وسائط الإعلام، قامت الشركات المملوكة للبيض، منذ الديمقراطية، بأخذ "شركاء" سود لها. وأبرزهؤلاء الشركاء هم أولئك الذين كانوا أبطال تحرير سابقين، ومعروفين باسم "أرستقراطية الكفاح". وهكذا، فالوجوه السوداء نفسها برزت بسرعة في صور غرفة اجتماع مجلس الإدارة. وهذا الاحتواء سمح للبيض ولرأس المال الأجنبي أن يفي بالتزاماته القانونية تحت مواثيق جديدة للشركات وسمح، وهو الأمر الأكثر أهمية، بكسب الوصول إلى مؤسسة المؤتمر الوطني الإفريقي.

وحين تطرح مناقصة لمشروع تنمية كبير، أو حين يعلن اندماج، فإن المدير الأسود الذي يجلس على رأس الطاولة في الغالب هو الذي يظهر وهو يأخذ المبادرة. والمكافآت جوهرية. فحين ضم مصرف ستاندرد بنك سيريل رامافوسا ومليونيراً آخر ووسيط السلطة للمؤتمر الوطني الإفريقي، ساكي ماكوزوما، فإن الاثنين كسبا كسباً صافياً بالملايين في الملكية الصافية. وروت بزنيس ريبورت أن "شخصين هما غنيان من قبل حصلا لنفسيهما على حصة صغيرة مقبولة في أكبر مصرف في جنوب إفريقية من دون أن يكون عليهما، على ما يبدو، أن يدفعا أي مبالغ نقداً. واستناداً إلى تدفق الأرباح المدفوعة من حصص مصرفهم ستاندرد بنك طوال السنوات الخمس عشرة إلى العشرين القادمة، فهما قد لا يكون عليهما أبداً أن يدفعا أي شيء مطلقاً".[26]

في شهر تشرين ثاني/نوفمبر من العام 2005، أعلن نيكي أوبنهايمر، وهو رئيس شركة دو بيرز، أكبر شركة منتجة للماس في العالم، بيع 26 بالمائة من الشركة إلى مجموعة لتمكين السود، وهي بوناهالو انفسمنت هولندنغز. وقال: "إن دو بيز هنا لتربح، ولكن يجب علينا أن نفيد الناس والمجتمعات التي نشتغل فيها". والناس الذين سيستفيدون فائدة سخية هم بضعة أشخاص من الشخصيات البارزة من المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن جملتهم مان ديبيكو، رئيس بوناهالو ورئيس

الوزراء الأسبق في مقاطعة نورثرن كيب (الكيب الشمالي)، الذي كانت حصته 343 مليون راند، وموس ماشيشي، وهو شخصية قيادية تقف خلف اللجنة الأولمبية في جنوب إفريقية، وتشيريل كارولوس، المندوب السامي السابق لجنوب إفريقية في لندن.[27]

وطوال السنوات الخمس الأولى من الديمقراطية، كان نادراً ما يمر أسبوع من دون أن تحتفل مجلة أو صحيفة بالمستفيدين من الطبقة "المُمَكّنة". وتدرج المستفيدون من رامافوسا، وهو الآن واحد من أغنى الأغنياء في جنوب إفريقية، وصهره باتريس موتسيبي، وهو شخص قطب في ميدان التعدين، وبريجيت أخت موتسيبي، وهي أيضاً رجلة* أعمال قوية في التعدين (وهي متزوجة من وزير حكومي من المؤتمر الوطني الإفريقي)، وإلى شخصية أقل شهرة، من مثل تومي موديس، "بارعة المهارة في الأعمال" والتي توصف بأنها "أكثر الرأسماليين في جنوب إفريقية صفاقة وصراحة".

وتومي موجودة في الصفحات الصقيلة من مجلة فمينا (الأنثى) وهي تستند مائلة على سيارتها المرسيدس البيضاء خارج شركتها أفانت – غارد كلينينغ (الطليعة للتنظيف)، وهي تقول إن المشكلة مع رفاقها السود، هي أنهم "لا يمتلكون أي أخلاق عمل". وهي لا تدفع إلا الحد الأدنى من الأجر فقط لعاملاتها من النساء، وهي فخورة بأن شدتها في "قتال الشوارع" تبعد الاتحادات.[28]

تابو مبيكي اقتصادي، تدرب في جامعة سسكس. وقبل أن يتسلم الحكم من مانديلا رئيساً، كان قد قال لي إن التمكين الاقتصادي الأسود كان "هدفاً جوهرياً" لجنوب إفريقية الجديدة. وسألته: ولكن لمن؟ فقال: "يجب أن تكون هناك عملية تدريجية. فعلى سبيل المثال، أنا أعتقد أن الشركات الكبرى تفهم ان من مصلحتها أن تَبرز طبقة أعمال سوداء مستقلة أصيلة، بنفس الطريقة، إلى حد كبير، التي ساعدوا فيها على تمكين القوة السياسية الأفريكانية، وذلك عن طريق إدخال الأفريكانيين في الاقتصاد [الذي يهيمن عليه البريطانيون]".

* الرَّجُلة: المرأة. أنظر المعجم الوسيط. (المترجم)

وقلت: "ألم يساعد ذلك الترتيب على مجرد توحيد الأقلية البيضاء في الجور على الأكثرية البيضاء؟"

"نعم، حسناً، أنا أفهم ذلك. دعنا نقل إن اجتثاث العرقية من اقتصاد جنوب إفريقية سوف يستغرق زمناً...

وقلت له إنني قابلت رجل أعمال أسود أخبرني أن شركة بيضاء قد استأجرته ليحصل على المناقصات من الحكومة. ووصف نفسه بأنه لحم الخنزير الأسود في الشطيرة البيضاء، وسألته: "أليست هذه العملية التي تذكرها تدور حول الثراء الشخصي ورموزه سوداء؟"

"ذلك يحدث بالتأكيد. فنحن لدينا كتلة الوجوه البيض الصلبة نفسها التي تأتي لرؤية نيلسون مانديللا. ولذلك فهم يحتاجون إلى وجه أسود معهم. تلك هي الكيفية التي يعمل بها التعيين، وسيكون عليها أن تتغير. نحن نحتاج إلى الوقت، كما ترى".

كان ذلك في العام 1997، ورأى الزمان تعييناً وغنى ينتشر تماماً عبر النخبة السوداء الجديدة. وقال عنوان رئيسي "اليسار ذهب إلى اليمين في الأعمال" وذلك في مجلة أخرى ذات صفحات صقيلة وهي معرض "لرفاق الكفاح" السابقين الذين "يُحضِرون قيماً جديدة وبصائر جديدة إلى قطاع الشركات، ناقلين أخلاقها ومطورين طرقاً جديدة للأعمال ليفاوضوا على تسارعات التحول الاقتصادي لجنوب إفريقية... وهي الحيوية نفسها التي كسرت التمييز العنصري والتي تساعد الآن الأعمال على كسر لغز النمو". هذه الإشارة غير المرتاحة إلى الماضي توافقت مع المواقف التي تشعر بالإحراج شعوراً خفيفاً لأولئك الذين يتفجعون، في بزاتهم المصممة تصميماً جديداً وقمصانهم المخططة الخاصة بالمديريين، "كم كان من الصعب عليهم عبور الخط بين النشاط الكفاحي وبين الأعمال". فهم يتحدثون عن إلهام الفقراء من أجل "العمل باتجاه تحقيق أهدافهم".

وشخص آخر يتحدث أيضاً عن "الأهداف" وعن "القيادة بالقدوة" هو الأمين العام للمؤتمر الوطني الأفريقي كغاليما موتلانثي، الذي يسكن في "بيت ست

أرقام" في غولف الوادي الأزرق (بلو فالي غولف) وعقارات الريف (كنتري إستيت) وهي مناطق، كما يقول موقعها على شبكة المعلومات، تكثر فيها "التأملات في السماوات الكوبالتية، وعقارات البيوت التوسكانية الأنيقة، والسدود والجداول الشفافة". وهي، في الحقيقة، ليست أقل من "ملاذ آمن هادئ" مع ما يخصه من "ميدان غولف مصمم من غاري بلير".[29] وللعقار "بوابة" وهو محاط "بأمن سريع الرد" وبالكلاب.

وهناك القصة المفيدة للسيدة مامفيلا رامفيلي. فحين عُينت في منصب كبير في البنك الدولي كانت قد وصفت بأنها "المثال النموذجي للتمكين الأسود". وهي "امرأة نهضة" من قلب الكفاح ضد التمييز العنصري، وكانت قد أبعدت طوال سبع سنوات بوصفها نشيطة وعي سوداء مع الرفيق/العشيق ستيف بيكو. وفي العام 1999، انتخبت للتعيين في واشنطون. وقال رئيس البنك الدولي: "إنه لأمر تاريخي أن يكون لدينا إفريقية معينة لمنصب المدير".[30]

وفي جنوب إفريقية، تلقى تعيينها جوقة من الثناء في وسائل الإعلام والعالم الجامعي. لقد كانت نائبة رئيس جامعة كيب تاون، وكانت قد نفذت هناك سلسلة من تخفيضات النفقات بين العمال ذوي الرواتب المنخفضة: وهو عمل يعجب به البنك الدولي. فهل كان من منطلق الاحترام لماضيها المتميز أن أحداً لم يتحدث علناً عما عناه فعلاً "تمكينها" الجديد؟ إن التاريخ السيئ السمعة للبنك الدولي في جنوب إفريقية وفي كل أرجاء القارة هو تاريخ موثق. فالبنك الدولي تديره أغنى الحكومات وتهيمن عليه وزارة الخزانة في الولايات المتحدة، وقد أوضح بجلاء أنه "لا بديل" هناك لإفريقية غير "نموذج السوق الحر" الجشع.

وفي العام 1950، في غضون عامين من الإعلان الرسمي للتمييز العنصري، كان البنك الدولي يدعم نظام حكم البيض العنصري التمييزي بقروض ضخمة من أجل البنية التحتية. وعلى سبيل المثال، فإن قروض الطاقة دعمت الطاقة الكهربائية المخصصة للأعمال التجارية والناس البيض فقط. ولم تكن مجزرة شاربفيل في العام 1960 رادعاً، وبعدها مباشرة منح النظام العنصري قرضاً بقيمة 45 مليون

دولار. ومن دعم البنك الدولي لموبوتو القاتل الجماعي في زائير إلى مطالبته الأفارقة أن يدفعوا "دينهم البغيض"* الناجم عن المستبدين الذين ساندهم البنك الدولي، كان البنك الدولي بذلك عميلاً رئيسياً في اضطهاد إفريقية. وبالنسبة إلى مشاريع "تنميته" مثل إمدادات الماء المخصخصة، فإن البنك الدولي اعتبر بتقييمه الخاص الداخلي هو أن 51 بالمائة من مشاريعه الإفريقية باءت بالفشل.

وفي العام الذي عُينت فيه مافيلا رامفيلي، وهو العام 1999، صرح مستشار من البنك الدولي لدى حكومة جنوب إفريقية بأن أجور أفقر العمال في القطاع العام غالية جداً وأوصى ذلك المستشار بألا يدفع للعمال أجر قطعياً وبأن يعطى لهم بدلاً من ذلك "الطعام مقابل العمل".[31] ولا شيء من هذا قطع الترحيبات الحماسية والجمهور واقف. وقد قال صديق من أصدقاء رامفيلي لجريدة صنداي إنديبندنت "إنه توكيد لمُثل الوعي الأسود بأننا نستطيع أن نصل إلى قمة العالم إذا كنا مصممين على ذلك". ومثل إدارة سيريل رامافوسا والبيوت "التوسكانية" الفخمة في غولف الوادي الأزرق وعقارات الريف، فإن الالتحاق بالعدو المؤسسي لإفريقية هو "قمة العالم".[32]

قبل الديمقراطية بزمن طويل احتفت مجلات مثل إيبوني، وتريبيوت، وإنتربرايز بأذواق وبمصالح بورجوازية سوداء كانت بيوتها التي تملك في سوويتو مرآبين للسيارات تُشمل في جولات كان يقوم بها نظام الحكم للأجانب الذين كان يريد أن يؤثر عليهم. ومثل حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي اليوم، فإن نظام حكم التمييز العنصري، في آخر عقد من الزمان له، تفهم قيمة "طبقة وسطى" سوداء بصفتها مخمداً للصدمة في نظام ظالم بشكل وحشي لا نظير له. وطبعاً، لم يكن هناك "وسطى" مطلقاً – وذلك لم يتغير حتى الآن.

بعد أن قوبل بي. دبليو. بوتا في أواسط الثمانينيات من 1980، بمقاومة شعبية متنامية، عرض على رجال الأعمال السود قروضاً سخية من مؤسسة التنمية

* الدّين البغيض في القانون الدولي هو الدين الذي تحمّله نظام الحكم لأغراض لا تخدم مصلحة الدولة. وبموجب هذه العقيدة يعتبر مثل هذا الدين ديناً شخصياً لنظام الحكم الذي تجشمه وليس ديناً في ذمة الدولة.(المترجم)

الصناعية. وهذا ما سمح لهم بإنشاء شركات خارج مناطق "البانتوستانات". وبهذه الطريقة، فإن شركة سوداء مثل نيو إفريقية انفستمنتس ليمتد (استثمارات إفريقية الجديدة المحدودة) كانت قادرة على أن تشتري جزءاً من شركة ميتروبوليتان لايف من مؤسسة سانلان. وفي غضون عقد من الزمان، كان سيريل رامافوسا نائب الرئيس لما كان بالفعل منشأة من إنشاء التمييز العنصري.[33]

وبحسب ما يراه المؤتمر الوطني الإفريقي، فإن الثروة "المتولدة" من المُمكَّنين حديثاً سوف "تجري إلى الأدنى" و"تنشىء الوظائف". ولكن العكس هو ما حدث. وكما برهن الرأسماليون السود فإنهم استطاعوا أن يكونوا بلا رحمة على الدرجة نفسها التي كان عليها سادتهم البيض السابقون في علاقات العمل، وفي المحسوبية للأصدقاء. وملاحقة الربح، وقد فُقِدت مئات آلاف الوظائف في الاندماجات وفي "إعادة الهيكلة". وبين العام 1995 والعام 2000، حين تحرك "الممكَّنون" السود إلى الجيوب البيضاء للثروة والامتيازات، فإن البطالة تضاعفت تقريباً وسقطت أغلبية سكان جنوب إفريقية سقوطاً أعمق في الفقر.[34] وفي الوقت الذي بدأت فيه الفجوة الموجودة بين البيض الأثرياء وبين السود الذين اغتنوا حديثاً تضيق لتنغلق، فإن الخليج الموجود بين الطبقة "الوسطى" السوداء وبين الأغلبية اتسعت اتساعاً لم تكن عليه من قبل قط. والتمييز العنصري الجديد كان تمييز الطبقة، لا تمييز العرق، على الرغم من أن بعضهم سيقول إنه كان مجرد زيادة في الانقسامات الطبقية التي كانت موجودة منذ وقت طويل داخل كل الأعراق.

في السنوات الأولى من الديمقراطية، كان الكثير من الإلهام نحو المحسوبية الجديدة قد أتى من مانديللا نفسه، الذي شكل علاقات شخصية مع رجال الأعمال البيض الأقوياء، بغض النظر عن كونهم قد أثروا في أثناء سنوات التمييز العنصري أم لا. وقد دوّن هذا الموضوع وأرّخ له الكاتب من جنوب إفريقية مارك جيفيسر، ووصف، بجفاف في الغالب، كيف أن مانديللا غذى صحبة "رؤساء الصناعة" واستمتع بها بشكل واضح: بدءاً من هاري أوبنهايمر، قطب التعدين، الذي كان قد عارض مبدأ صوت واحد لرجل واحد، ووصولاً إلى ريموند آكرمان،

رئيس شركة البيع المفرق بك "ن" بي (تخيَّر وادفع) العملاقة، الذي لعب "كرمه" [المانديللا] دوراً جوهرياً في جعل الرئيس ينجز قراراً سريعاً لإضراب شركة بك "ن" بي في العام 1994 بعد أن انتخب الرئيس مباشرة.

وكان هدف مانديللا المباشر هو الحصول على المال للمؤتمر الوطني الإفريقي وللأعمال الخيرية. ومع وجود الرئيس إلى جانب بل فينتر، المليونير المتعدد الملايين، والزوج السابق لإديث، فقد وصف بل فينتر شركته بأنها كانت "باستمرار ملتزمة بحقوق الإنسان وبتمكين الناس المحرومين". وكانت المناسبة افتتاح مكتبة سميت على اسم المقاتل العظيم ضد التمييز العنصري برام فيشر، وهي المكتبة التي قدم لها فينتر المال. وقد علقت ابنة فيشر، روث رايس بالقول: "كانت كلها غريبة نوعاً ما، وكل هذه المادة عن هذا المحب العظيم للأعمال الإنسانية بل فينتر... لقد تركتني أتعجب أين كان يقاتل؟ ولماذا لم أسمع به؟"

وأما بالنسبة إلى مانديللا، فقد كتب جيفيسر،

إنه وضع نفسه بوصفه الراهب – الأب الذي يسمع الاعترافات نوعاً ما للقطاع الخاص: فبخلاف الجنود أو السياسيين، على كل حال، فإن رجال الأعمال لا يحتاجون إلى أن يعترفوا – بأنهم يحتاجون فقط إلى أن يدفعوا المال... إنه لأمر حكيم جداً في الحقيقة... الأطفال يحصلون على المدارس، والناس الريفيون يحصلون على المستوصفات والأعمال التجارية الكبيرة تحصل على مهدىء لضميرها، وتحسين لمحفظة مسؤولية شركتها، والملامسة مرة مع العظمة مع صورة لإثبات ذلك... وبعد أن أعطى برت ويسيلز من تويوتا مسؤولاً في المؤتمر الوطني الإفريقي شيكاً بمبلغ 250.000 راند بعد مناشدة مانديللا لقطاع الأعمال لمساعدة الحزب في التوجه نحو الانتخابات، أعيد الشيك إليه على غداء عمل، من مانديللا نفسه. فلم يكن على ما يبدو كبيراً بما فيه الكفاية.

وقد كتب جيفيسر يقول إن هذا "يحمل مخاطر ضخمة: فقد لايكون مانديللا معروضاً للبيع، ولكن هذا لا يعني أن الأعمال الكبيرة لن تحاول شراءه".[35]

في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2005، أدت جنازة قطب التعدين بريت كيبل في كيب تاون إلى إضاءة ظلال "التمكين الاقتصادي الأسود". فكيبل، الذي كان قد قتل، ربما على يد قاتل محترف مأجور، كان قد أنشأ العديد من شركات الواجهة للتمكين الاقتصادي الأسود. وتم تمويل أكثر من بليون راند في صفقات من شركته في التعدين . جيه سي آي، التي كان قد استقال منها كيبل قبل أن يقتل بوقت قليل. وفي وقت قتله، علقت سوق تداول الأسهم في جنوب إفريقية كلاً من شركة جيه سي آي وشركة أخرى كان يسيطر عليها هي راندغولد ريسورسيس (موارد راندغولد) ورُوي أن أعداداً كبيرة من الحصص كان "مفقوداً"، وفقاً لما جاء في ميل وغارديان جوهانيسبيرغ.[36]

كان كيبل يعقد صفقات مع أشخاص مهمين في المؤتمر الوطني الإفريقي أو بالنيابة عنهم، ومن جملتهم "ذراع الاستثمار" لعصبة شباب المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد شكل أعضاء العصبة حرس شرف في جنازته، وكان كفنه ملفوفاً بالعلم ودوى النشيد الوطني عبر كاتدرائية القديس جورج الرائعة. وكانت مع الجنازة هناك الوجوه المشهورة التي أثرت حديثاً من "أرستقراطية الكفاح". وحضر ممثل عن الرئيس مبيكي، ورئيس وزراء الكيب الغربي، وعمدة كيب تاون، والمتحدث عن البرلمان، وحفنة من أعضاء البرلمان، وحامل السوط* السابق للمؤتمر الوطني الإفريقي، وكان هناك المدانون المحتالون، إلى جانب أعضاء من النخبة البيضاء. ليست أقلهم بام غولدنغ وهي رئيسة السن للممتلكات العقارية، وهي من القلاع التيودورية المغطاة بالقش في كونستانتيا والكامبس بي (خليج المخيمات). وفي خارج الكنيسة، كانت القبضات السوداء ترتفع، والناس ينادون اسم كيبل بالقول "رجلنا الأبيض"، لقد كان في الجنازة كل مسرحية جنازة الثمانينيات من 1980 التي كانت تجري لبطل مقاومة سقط، مثلما روت الميل والغارديان، ولكن القمصان حرف تي T والقبعات (البريهات) تغيرت واستبدل بها زيادات البرجوازية

* حامل السوط: عضو في البرلمان يعهد إليه حزبه بتطبيق الأنظمة الحزبية ويحمل نواب الحزب على حضور الجلسات الهامة. (المترجم)

الجديد: نظارات سوداء من نوع غوشي وبزات تتوافق معها، وبالنسبة إلى النساء، القبعات السوداء الثمينة.[37]

في السبعينيات من 1970، أعلن المؤتمر الوطني الإفريقي: "إنه لملمح أساسي في إستراتيجيتنا أن النصر يجب أن يضم أكثر من الديمقراطية السياسية الشكلية. إن السماح للقوى الاقتصادية الموجودة بأن تحتفظ بمصالحها سليمة... لا يمثل ولا مجرد ظل التحرير".[38] وفي العام 2001، أخبر جورج سوروس منتدى دافوس الاقتصادي العالمي بالقول: "إن جنوب إفريقية في أيدي رأس المال الدولي".[39]

في شتاء جنوب إفريقية من ذلك العام، وقفت هنرييتا مقوكوميسو في خارج بيتها في ناحية مدينة العزل العنصري أليكساندرا في جوهانيسبيرغ. كان الوقت فجراً وكان الجور بارداً برداً قارصاً. وكانت تعرف هي وأطفالها ما الذي سيأتي. لقد رُسِمت على بابها ثلاث شارات صفراء كالصليب، وكان ذلك يعني أن بيتها، وفي غضون ساعات قليلة، سوف يدمر: وهو بيت فيه الكهرباء الثمينة، والماء، وحمام، ومغسلة. ومع آلاف آخرين، سوف تنقل هنرييتا بالقوة إلى بقعة جرداء، وهناك، إن كانت محظوظة، سيكون لها كوخ من دون كهرباء، ولا ماء، ولا حمام، ولا مغسلة. وقالت: "إن التمييز العنصري كان أفضل من هذا".

الإزالات والنقل بالقوة، وهي توقيع التمييز العنصري، شائعة مرة ثانية في جنوب إفريقية. وقد أُعلِمت هنرييتا أن شارعها كان "سيحسن"، ولم يعط لها أي تفسير آخر. فإذا كان نقلها جزءاً من مخطط لإزالة الأحياء الفقيرة المكتظة على طول نهر جوكسكي الملوث، فإن البديل الموحش الذي أعطي لها لم يكن يشكل أي تبرير. فهي لم تستشر ولم يكن هناك أي استئناف، ويبقى النهر ملوثاً.

إن هذا النوع من المعاملة الوحشية، وهي في أسوأ الأحوال، تخريب ممتلكات عامة تقوم به الدولة، أمر لا يختلف كثيراً عن الأعمال التي جرّت من الغرب إدانة الأعمال المخزية لروبرت موغابي في زمبابوي – ولكن ليس في جنوب إفريقية، التي

عاد فيها استثمار رأس المال الأجنبي إلى المستويات القياسية التي كان عليها في سنوات التمييز العنصري.

و"البداية الجديدة" المتواضعة التي توقعتها هنرييتا حين وقفت تنتظر لمدة يومين تقريباً لتقترع لماندليلا وللمؤتمر الوطني الإفريقي لم تتجسد في الواقع. وهي تقول إنها الآن أفقر وأقل أمناً مما كانت عليه تحت التمييز العنصري، وهو رأيٌ كثيراً ما يسمع في مناطق مدن العزل العنصري.

وفي الوقت الذي ارتفع فيه متوسط دخل الأسرة البيضاء بنسبة 15 بالمائة، وفقاً لإحصاءات الحكومة، فإن متوسط دخل الأسرة السوداء قد هبط بنسبة 19 بالمائة: وهو نزول من مستوى معين من الفقر إلى مستوى أدنى. فواتير الكهرباء والماء قد ارتفعت ارتفاعاً سريعاً وهي الآن تستهلك تقريباً ثلث دخل أفقر العائلات.[41] ويقدر أن عشرة ملايين نسمة قد عجزوا عن الدفع فقطعت عنهم إمدادات الماء والكهرباء. وفي العام 2004، اتهمت حركة الناس الذين لا يملكون أرضاً الحكومة بأنها تتنكر وتخلف في عهدها "عهد التحرير" في إعادة توزيع 30 بالمائة من أرض البلاد الزراعية من ستين ألف مزارع أبيض إلى الفقراء الريفيين والحضريين. ولكن الأرض التي نقلت لا تزيد إلا قليلاً على 2 بالمائة في خلال مدة العقد الزمني منذ التحرير.[42]

وقال ثابو مبيكي "سمِّني تاتشرياً فقط". قال ذلك في مؤتمر صحفي في حزيران/يونيو من العام 1996، وفي ذلك المؤتمر قدمت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي، التي كان عمرها قد بلغ سنتين، إستراتيجيتها الاقتصادية المعروفة بعناوين النمو، والتوظيف، وإعادة التوزيع.[43] وخلف واجهة من "الثروة وإنشاء الوظائف" كانت هذه الإستراتيجية، من كل النواحي ما عدا الاسم، هي "برنامج تعديل هيكلي" من البنك الدولي، وفي قيد العبودية لخطة تقليدية (أورثوذوكسية) تعرف باسم "إجماع واشنطون"، وهي الخطة التي سبق لها أن دمرت اقتصادات البلدان الفقيرة في جميع أنحاء العالم، وبشكل ملحوظ بلدان إفريقية الواقعة جنوب الصحراء.

وفي تلك الخطة سوف تسقط الخدمات العامة في موقع خلف الخصخصة، وفي الغالب في "شراكات عامة – خاصة" وسوف يتلقى الاستثمار الأجنبي "تخفيضات ضريبية" كريمة، وسوف تقوم التعريفات الجمركية المنخفضة بإغراء الواردات الأجنبية، وسيسود التضخم المنخفض فوق الأجور المنخفضة والبطالة العالية (المعروف باسم "مرونة العمالة")، وسوف ترفع الضوابط المفروضة على هروب رأس المال وسوف يتم إخضاع الراند لنزوات "السوق". وفوق كل ذلك، فسوف يتم فرض قواعد المؤسسات واختصاصاتها التي وضعتها الولايات المتحدة والمتعاونون معها – البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. وقد رُفعت التعريفات الجمركية بمعدل أسرع من المعدل الذي حث عليه البنك الدولي، و"توصية" البنك بأن تخصص الحكومة ربع ميزانيتها لتدفع دين التمييز العنصري كانت، كما قال مدير المالية تريفور مانيويل، توصية "غير قابلة للتفاوض".

وبدا الأمر وكأن المؤتمر الوطني الإفريقي طمح إلى أن يكون أشد بياضاً من البيض أنفسهم في علاقاته مع حكام العالم. وأما بالنسبة إلى الديمقراطية في الوطن، فلا اللجنة التنفيذية الوطنية للمؤتمر الوطني الإفريقي كانت تستشار، ولا البرلمان، ولا الاتحادات، ولا الجمهور. واستبعد الحلفاء القدامى أو عوملوا معاملة من يقول نحن نعرف أفضل ترتيب للقتال، وأما شريكا المؤتمر الوطني الإفريقي في "الحلف الثلاثي" من الأحزاب وهما مؤتمر اتحادات عمال جنوب إفريقية، والحزب الشيوعي لجنوب إفريقية، فقد أطلعا على العناوين الرئيسية للفصول فقط من أول خطة اقتصادية لجنوب إفريقية الديمقراطية.

وقال مانويل: "نحن نسعى إلى تأسيس بيئة يزدهر فيها الرابحون".[44] وبعد أن تحول مانويل، فمُسِخ من نشيط سياسي طويل الشعر راكب دراجة من مسطحات الكيب (كيب فلاتس)، إلى النموذج نفسه لرأسمالي ولد ثانية، تبجح بعجز منخفض جداً إلى درجة هبط معها تقريباً إلى مستوى الاقتصادات الأوروبية، مع حد أدنى من الصرف العام ليتوافق مع ذلك وتكريس "للنمو الاقتصادي"، وهي كلمة ملطفة غامضة تحل محل تعبير اقتصاد يستلهم الربح.

كان هناك شيء غريب (سريالي) حول كل هذا. هل كانت هذه بلاداً للنشيطين في الشركات يحتفلون فيها بصفقاتهم السرية على صفحات الأعمال الضخمة: من التقانيين المدربين في هارفارد وهم يكسرون ويفتحون الشمبانيا وفق آخر معدل ائتمان من دوف وفيلْبس في نيويورك؟ أم هل كانت بلاداً للمفتقرين فقراً عميقاً من الرجال، والنساء والأطفال الذين يعيشون من دون ماء نظيف ولا صحة عامة، ويجري اضطهاد موردها الإنساني غير المحدد وهدره، مع ذلك مرة أخرى؟

أحد رسوم الكارتون المفضلة عندي هو للفنان السياسي العظيم من جنوب إفريقية جوناثان شابير، والرسم عن طفل أسود في منطقة فقيرة مكتظة من مدينة العزل العنصري وهو يقرأ الصفحات المالية لأمه، التي تحاول أن تغسل ملابسهم في حفرة قذرة. وهو يقول: "ستكونين سعيدة بأن تعلمي أن الأساسيات الاقتصادية في المكان الصحيح، بحسب قول المحللين".[45]

كيف حدث هذا؟ قال المحلل الإفريقي بيتر روبنز: "أنا أعتقد أن السبب الذي يكمن خلف ذهاب قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي إلى تفضيل مدخل صندوق النقد الدولي هو أنهم يشعرون بالخجل من أن معظم شعبهم يعيش في العالم الثالث. وهم لا يحبون أن يفكروا بأنفسهم بوصفهم في الغالب في اقتصاد من نوع إفريقي. وهكذا فالتمييز العنصري الاقتصادي حل محل التمييز العنصري القانوني مع العواقب نفسها للشعب نفسه، ومع ذلك فقد وجهت له التحية بوصفه واحداً من أعظم الإنجازات في تاريخ العالم".[46]

في السنوات الأولى لحكومة المؤتمر الوطني الإفريقي، أُخضعت الحكومة "لقصف إيديولوجي كاسح"، كما يصفه الكاتب هين ماريس، مع ضغط "متواصل" من الولايات المتحدة لقبول رسالة "الوفرة من مشاريع البحث التي أطلقها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي".[47] وكان إغواء المؤتمر الوطني الإفريقي وحلفائه جارياً في مجراه بشكل جيد. وقد تساءل باترك بوند في كتابه تحول النخبة، "لماذا شَغلت "المواثيق" و"العقود" و"الاتفاقات" و"العقود الاجتماعية" وما شابهها مثل هذه الطاقة الكبيرة من الحركة الديمقراطية في مطالع التسعينيات

من 1990؟ وكيف يقوم من هم دون الوسط من الباعة المتجولين لليبرالية الجديدة بتملق ومداهنة عدد كبير إلى هذا الحد من القادة السابقين للطبقة العاملة المتميزين بالمواقف القوية ومن المفكرين التقدميين ليصلوا بهم إلى التخلي عن مبادئ أساسية؟"[48]

في البداية، جاهرت قلة بآرائها، فكتبت ماري ميتكالف، وزيرة التعليم في مقاطعة غوتنغ تقول: "المنفعة الوحيدة للنظام غير الموثوق الذي ورثناه هي الفرص التي يوفرها من أجل التغيير الجذري". ووصفت المدارس التي كانت قد "بُنيت عمداً من دون حمامات" و"من دون القدرة على الوصول إلى الماء الجاري ضمن مسافة المشي". ومن أجل كل أربعة مدرسين، كان هناك فصل واحد فقط، ولا توجد أي مكتبة، ولا مختبر، ولا غرفة موظفين، ولا مقاعد. وأخبرتني أن "ما هو صعب هو أن هذه التشويهات التاريخية، تجري معالجتها في ظروف مستحيلة من التقشف المالي... وهو ما يجعل توفير الظروف المقبولةأجأ

للتعليم وللتعلم استحالة مطلقة".

التقشف المالي ."الليبرالية الجديدة"ـ صارت الآن سياسة. كان محرِّرو جنوب إفريقية قد استنشقوا الهواء الساخن من لغة الشركات، وفي غضون ثلاث سنوات من تولي السلطة، كانت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي تدعى إلى رأس الطاولة في اجتماعات دافوس واجتماعات الثمانية الكبار، وهناك كانت تُقدَّم "إنجازاتها في الاقتصاد الكبير" بوصفها إلهاماً لبقية الإنسانية "النامية". ومن مختصرGEAR (جي ئي إي آر، جير) التي تعني النمو والتوظيف وإعادة التوزيع إلى مختصرات أخرى شنيعة مثل NEPAD (ان ئي بي إي دي، نيباد) وهي الشراكة الاقتصادية الجديدة للنمو الإفريقي. وقد أمر بهذا بوش وبلير، وتم اختراعها في دافوس لتكون إسهام حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي في نشر "الليبرالية الجديدة" في أرجاء إفريقية.

وفي الوطن لم ينس الناس في مناطق مدن العزل العنصري. "فالوعد المستمر" من المؤتمر الوطني الإفريقي كان وعد RDP (آر دي بي) أي، برنامج إعادة الإعمار

والتنمية. وكان هذا الوعد واحداً من "التعهدات الرصينة" في بيان الانتخابات الديمقراطية الأولى. وقد اعتبرها الملايين من أبناء جنوب إفريقية، بناء على ميثاق الحرية، إعلاناً عاماً مشرفاً للحقوق التي كانت المنارة لمن رُحِّلوا، ولمن سجنوا، ولمن عذبوا ولجميع أولئك الذين يقاتلون دولة التمييز العنصري.

في نيسان/إبريل من العام 1996، قبل قليل من إعلان النمو والتوظيف وإعادة التوزيع، كان مكتب برنامج إعادة الإعمار والتنمية قد أغلق أبوابه بهدوء وتحولت ميزانيته إلى وزارة المالية وإلى مكتب ثابو مبيكي، نائب الرئيس. وقد أخبرني مستشار في الوزارة بالقول: "من المحزن أنه كان متخلفاً انقضى أوانه". وبعد عامين، وصف برنامج الأمم المتحدة للتنمية، برنامج النمو والتوظيف وإعادة التوزيع بأنه من الناحية الأساسية "غير مختلف" عن الإستراتيجية الاقتصادية لنظام التمييز العنصري قبل عقد مضى من الزمان.[49]

لقد كتب الإفريقي الحالم صاحب الرؤية أميلكار كابرال* يقول: بالنسبة إلى البورجوازية الجديدة في إفريقية فإنها لكي تخدم شعبها عليها أن تقوم "بانتحار طبقي"[50] وبكلمات أخرى، سيكون على البورجوازية الجديدة أن تدير ظهرها إلى إغراءات السلطة: إلى المرسيدسات في الممر الخاص للسيارات، وعضوية المدير، والبيوت "التوسكانية" في غولف الوادي الأزرق وفي عقارات الريف، والتملق للفنيين (التكنوقراط) البيض الواقعين في العبودية لآخر أعلى عبادة للرأسمالية. وسيكون عليهم أن يفكروا بشعبهم أولاً، ولا يفكروا بصفتهم عملاء لقوى هي فوق قدرتهم على السيطرة، بل بصفتهم ممثلين حقيقيين.

وكان هذا في ذهن فرانز فانون حين حذر في كتابه المعذبون في الأرض، من خطر الطبقة الوسطى الجديدة المحررة في إفريقية وهي:

---

* أميلكار كابرال (1924 – 73) مهندس زراعي، وكاتب، وصحافي. ولد في غينيا البرتغالية لوالدين من الرأس الأخضر. تلقى تعليمه في لشبونة في البرتغال التي كانت القوة الاستعمارية في غينا. عاد من منفاه في أنغولا عام 1956، وخاض حرب عصابات ضد الدولة الاستعمارية وساهم في تشكيل الحركات الطلابية والحزب الإفريقي لاستقلال غينيا والرأس الأخضر واغتيل في عام 1973. وحين استقلت غينيابيساو (1974) صار أخوه رئيساً لها.(المترجم).

تكتشف مهمتها التاريخية: وهي مهمة الوسيط. فرؤيتها لمهمتها من خلال عيونها لا علاقة لها بتحويل الأمة: إن مهمتها تتكون، وبشكل مبتذل، في كون هذه الطبقة خط الانتقال بين الأمة وبين رأسمالية، متفشية جامحة وإن كانت مموهة، وتضع اليوم قناع الاستعمار الجديد. إن البورجوازية [الجديدة] ستكون قانعة تماماً بدور وكيل أعمال البورجوازية الغربية، وسوف تلعب دورها من دون أي عُقد نفسية وبأسلوب هو أكثر الأساليب وقاراً. ولكن هذا الدور نفسه المُدِر للإيراد الوفير، هذه الوظيفة التي يقوم بها البائع المتجول للسلع الرخيصة، وهذه الدناءة في النظرة...هي في الحقيقة بداية النهاية.[51]

هل كانت المسألة ببساطة هي في أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان قد بقي في المنفى لمدة طويلة وكان لذلك مستعداً لقبول السلطة بأي ثمن؟ وعلى الرغم من أنه كان هناك من غازل التغيير الجذري، فقد كانت التبشيرية المسيحية، لا الماركسية، هي التي تركت أرسخ علامة لا تتمحي على نخبة المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى وفي السجن. وبالتأكيد، فإن مانديللا لم يعبر على ما يبدو تعبيراً واضحاً عن رؤية منسجمة، لم يكن مثل كابرال أو نهرو. لا بل إن ميثاق الحرية الموقر، وهو وثيقة "حقوق إنسان" كان تعبيراً عن ليبرالية مفعمة بالأمل أكثر مما هو مخطط تفصيلي لتحويل مجتمع مضطهد. لقد كانت حركة الوعي الأسود هي التي ألهمت كثيرين من الناس في مناطق مدن العزل العنصري أن يواجهوا الرصاص والغاز المسيل للدموع: وهم الناس الذين كانوا قد أجبروا، منذ العام 1994، على أن يتراجعوا إلى الظلال.

وبقدر ما كانت أحداث شهر شباط/فبراير من العام 1990 مؤثرة دراماتيكية ومفعمة بالأمل – وهي رفع اف. دبليو. دوكليرك الحظر عن المؤتمر الوطني الإفريقي، مع ما تبعه من إطلاق سراح مانديللا من السجن – فإنها أحداث طرحت أسئلة مقلقة للكثيرين في المقاومة. فماذا كانت بدقة الصفقة التي عقدت بين قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي وبين برودربوند(الإخوان الأفركانيين) الفاشية التي كانت واقفة خلف نظام حكم التمييز العنصري؟ وماذا قدم مانديللا ومبيكي والآخرون المنفيون في زامبيا؟ وما هو الدور الذي كان قد لعبه الأمريكيون ورأس المال الدولي؟

في العام 1985، عانى التمييز العنصري كارثتين: انهارت سوق الأسهم في جوهانيسبيرغ وقصَّر نظام الحكم في الوفاء بدَينه الدولي المتزايد. وأصيب رؤساء رأس المال في جنوب إفريقية بالذعر، وفي أيلول/ سبتمبر من ذلك العام قامت مجموعة يقودها غافن ريللي، رئيس الشركة الأنجلو – أمريكية، بمقابلة أوليفر تامبو، رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي، ومسؤولين آخرين في المقاومة، في مفووي، في زامبيا. وكانت رسالتهم هي أن "التحويل" من التمييز العنصري إلى ديمقراطية ليبرالية محكومة من السود كان أمراً ممكناً إذا كان "النظام" و"الاستقرار" مضمونين. وكانت هذه ألفاظ ملطفة للتعبير عن دولة رأسمالية لن تكون فيها العدالة الاجتماعية مضمونة.

إن صفقة قد أُلّفت معاً في سرية عالية بين شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1987 وشهر أيار/مايو من العام 1990، حين قام مسؤولون من المؤتمر الوطني الإفريقي يقودهم ثابو مبيكي (الذي كان قد حضر اجتماع لوساكا بصفة السكرتير السياسي لتامبو)، بمقابلة عشرين عضواً بارزاً من النخبة الأفريكانية في بيت فخم قرب مدينة باث، في إنجلترا. وحول المدفأة في مللس بارك هاوس، شربوا خمر عنب الموسم والويسكي المصنوعة مع الشعير. ونكتوا حول أكل الأعناب "غير القانونية" من جنوب إفريقية، التي كانت آنئذ خاضعة للمقاطعة في كل أنحاء العالم. وتذكر موف تيريبلاش ذلك بالقول: "إنه عالم متمدن هناك". وهو سمسار أسهم أفريكاني مفرط البدانة وكان صديقاً حميماً لدوكليرك. "إذا تناولت شراباً مع شخص ما وأنت تناقش وتجلس، ثم تجلس ثم تتحدث، ثم تتناول شراباً آخر، فإن كل ذلك يأتي بالتفاهم. حقيقة، لقد صرنا أصدقاء".[52]

وكانت هذه الاجتماعات اللطيفة العشرة سرية جداً إلى الدرجة التي لم يكن أحد قد علم عنها إلا قلة مختارة من المؤتمر الوطني الإفريقي. وخاف مبيكي أن خططه من أجل صفقة – وكان يفضل تعبير "حل وسط تاريخي" – سيرفضها رفاقه الذين يواجهون الغضب الكامل لنظام الحكم في مدن الفصل العنصري بوصفها صفقة بيع. لقد كان هذا قابلاً للفهم نظراً إلى أن المحركات الأولى خلف هذه

الاجتماعات كانوا هم أولئك الذين دعموا التمييز العنصري وانتفعوا منه – من أمثال عملاق التعدين البريطاني كونسوليديتيد غولدفيلدز (حقول الذهب المعززة). وقد التقطت الشركة الفاتورة في مللس بارك هاوس، وهو المكان الذي كان واضحاً فيه أن أهم بند كان ينبغي أن يتقرر حول المدفأة هو النظام الاقتصادي الذي سيرافق "الديمقراطية".

وفي الوقت نفسه، كان مانديللا يدير مفاوضاته الخاصة. وفي العام 1986، نقل من روبن آيلند (جزيرة روبن) إلى سجن بولسمور، وهناك أعطي ثلاث غرف ومنح الفرصة لاستقبال الناس وإكرامهم في خصوصية سرية. وزود بطاه أبيض وقائمة خمور. ثم نقل لاحقاً، إلى بيت آمر السجن الرئيسي في سجن فيكتور فيرستر، وكان فيه هاتف، وناسوخ (فاكس) وبركة سباحة.

وكان هدف نظام الحكم هو شق المؤتمر الوطني الإفريقي بين "المعتدلين" الذين كانوا يستطيعون "الاشتغال بالأعمال التجارية معهم" (مانديللا وتامبو ومبيكي معاً) وبين الأغلبية الذين شكلوا قوة التدمير النهائي وكانوا يقاتلون في الشوارع. وكان واسطة الاتصال الرئيسية لمانديللا مع نظام الحكم هو نيل بارنارد، وهو المؤمن الحقيقي بالتمييز العنصري الذي كان يدير إدارة الاستخبارات الوطنية. وكان بارنارد وزملاؤه يسمون مانديللا "الرجل العجوز"، وهي علاقة انتهازية متبادلة، إذ لم تكن اعتماداً، وقد تطورت ومانديللا يعرض باستمرار تطمينات متكررة بأن البيض ليس لديهم ما يخافونه من تحرير السود. وذهب مانديللا بعيداً إلى حد أنه هاتف بي. دبليو. بوتا في عيد ميلاده.

في 5 تموز/يوليو من العام 1989، أُعطي مانديللا بزة وربطة عنق وحذاء لامعاً وأُخِذ ليقابل "التمساح الكبير" نفسه كما كان يعرف بي. دبليو. بوتا. كان هذا هو الرجل الذي سبب لشعب جنوب إفريقية معاناة هي أكبر من أي معاناة تقريباً سببها أي واحد من المتصلبين المحافظين (المتطرفين أو بالمعنى الحرفي "الضيقين"). وبعد حديث قصير، طالب مانديللا بإطلاق سراح السجناء السياسيين، ورفض بوتا. ولكن التمساح الكبير، مع ذلك، فعل شيئاً كان ذا قيمة كبيرة بالنسبة إلى

مانديللا. لقد وقف وصب الشاي. وقال مانديللا فيما بعد: "خرجت وأنا أشعر أنني كنت قد قابلت رئيس دولة مبدعاً، حصيف الرأي عاملني بكل الاحترام والكرامة التي كنت أستطيع أن أتوقعها".[53]

وأما دوكليرك، خليفة بوتا، فقابل مانديللا في 13 كانون الأول/ديسمبر من العام 1989. ولكنه لم يصب الشاي. وخلافاً للأساطير المنسوجة حوله، فدو كليرك لم يكن ليبرالياً، أو إصلاحياً. في أثناء الثمانينيات من 1980 كان قد رفض ولو موقف بوتا الذي كان يتطور وناقش ضد مجرد فكرة السود في البرلمان، والرئيس الأسود بالنسبة إليه كان لعنة بغيضة. وتتذكر باتي وولدمير، مراسلة الفايننشال تايمز، أن دوكليرك في اجتماع عام في 1987، "حث البيض على أن يرفعوا تقارير عن الناس الآخرين من الأعراق الأخرى الذين يعيشون في مناطق بيضاء معزولة – هذا على الرغم من أن الحكومة كانت في ذلك الوقت تغض الطرف إلى حد كبير عن الاندماج غير الرسمي. لقد قاتل دوكليرك ليبقي السود خارج الجامعات البيضاء. وشدد مراراً وتكراراً على التزامه (بحقوق الجماعة)- وهو المبدأ الموجِّه للتمييز العنصري الجديد".[54] لقد كان مبدأ "حقوق الجماعة" هو الذي طالب به المفاوضون البيض في مللس بارك هاوس.

إن ما كان يفرض "الذرائعية" على دوكليرك هو الإشارات القادمة من واشنطون. إن الشركات الأمريكية كانت تضخ 40 بالمائة من النفط الذي وفر الطاقة للتمييز العنصري، وهي التي قدمت الإمدادات من الحواسيب التي أدارت الدولة البوليسية والشاحنات والعربات المدرعة التي كانت تهاجم مناطق مدن العزل العنصري. وفي الأمم المتحدة، كانت الولايات المتحدة قد حمت جنوب إفريقية باستخدام حق النقض ضد قرارات مجلس الأمن المعادية. وحين طور نظام الحكم أسلحة نووية تعامت واشنطون عن ذلك.

وعلى الرغم من أن إدارة ريغان كانت قد منحت دعاة التفوق العنصري البيض كل فائدة من الشك، أي اعتبار الشخص بريئاً حتى يثبت غير ذلك – وهي سياسية معروفة باسم "الاشتباك البناء" – فإن مؤسسة الأعمال الأمريكية قررت في أواسط

الثمانينيات من 1980 أن نظام الحكم كان قد بدأ يصير مسؤولية، تستفز انتفاضة الناس في أهم سوق إفريقية وهو أمر "عكس المطلوب" إنتاجياً. والوثائق الأمريكية التي رفعت عنها السرية توضح ذلك بجلاء. ففي 24 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1985، يصف تقرير سري من الأسرار العليا اجتماعاً للبيت الأبيض الحاجة العاجلة إلى إقامة "مجلس للشركات الأمريكية في جنوب إفريقية" يكون عليه أن يقوم بتنسيق الضغط من الأعمال على بريتوريا كي "تتحرك بعيداً عن التمييز العنصري بسرعة أكبر". وسمح بإعلانات في الصحف على صفحات كاملة، تقول بلغة تختفي تحت حجاب رقيق، إن واشنطون قد حكمت بأن التمييز العنصري صار الآن سيئاً بالنسبة إلى الأعمال.[55]

وفي العام 1985، تذكر بنك تشيز مانهاتن ديونه على جنوب إفريقية وأعلن أنه كان "يتخلص منها"، وتبعه في ذلك آخرون. وأقر مجلس الشيوخ الأمريكي القانون الشامل لمناهضة التمييز العنصري. وحين جاء دوكليرك إلى السلطة في العام 1989، كان رأس المال ينزف بمعدل كبير إلى درجة كانت معها احتياطيات النقد الأجنبي في البلاد لا تكاد تغطي خمسة أسابيع من الواردات. ولا تترك الوثائق التي رفعت عنها السرية مجالاً لأدنى شك في أن دوكليرك وبرودربوند كانوا في حالة إنذار لإنقاذ الرأسمالية في جنوب إفريقية.

في الساعة 4.16 مساء في 11 شباط/فبراير من العام 1990، مشى مانديللا حراً. لقد كان يحتاج إلى أسبوع إضافي في السجن ليعد نفسه، ولكن دوكليرك قال: لا. لقد أخرجوه على عجل. وحين خطا مانديللا إلى شرفة قاعة بلدية مدينة كيب تاون، مد يده ليأخذ نظاراته ولكنه أدرك أنه تركها في السجن. وتحدث، وهو يضع نظارات زوجته، مع وجود سيريل رامافوسا لسنده، إلى الملايين في جنوب إفريقية وفي كل أنحاء العالم. وقال: "الآن هو الوقت لتشديد الكفاح..". وحذر نظام الحكم من أنه إذا استمر عنفه المنسق فإن "الشعب لن يتردد في الرد عليه بالقتال". لقد كان بياناً فخوراً وغاضباً وربما كان أشد خطاب عسكري سبق لمانديللا أن ألقاه.

وفي اليوم الثاني ظهر ليصحح نفسه. وليكرر طمأنة المؤسسة البيضاء بأنه "ليس شيوعياً" وأن حكم الأغلبية لن يؤدي إلى "هيمنة السود على البيض"، وكرر وصفه السابق لدوكليرك بأنه "رجل نزاهة"[56]. وهذا أقلق كثرين في المقاومة، وحين انتشرت الكلمة بأن مانديللا ومبيكي كانا يتفاوضان سراً طوال أكثر من سنتين، انتشرت خيبة الأمل وهلع على نطاق واسع. وتحول هذا الشعور إلى الغضب حين انكشف أن مانديللا كان قد كتب إلى بي. دبليو. بوتا يعرض حماية دستورية خاصة للبيض.

وسألت ثابو مبيكي: "هل تعترف بأن العديدين من الناس نظروا إلى هذا بوصفه خيانة؟"

وأجابني: "لو لم نعمل الحلول الوسط التاريخية لكان هناك حمامات دم ومعاناة كبيرة في كل البلاد".

كان يشير إلى التهديد القادم من "اليمين البعيد". هل وجد مثل هذا التهديد سابقاً؟ إن هزيمة مجموعة مسلحة من فاشيست إي دبليو بي (حركة المقاومة الأفريكانية) حين تراجعوا عن "غزوهم" السخيف لبوفوثاتسوانا قبل انتخابات العام 1994 أشارت إلى فراغ ذلك التهدد. وبالتأكيد، تبين أنه أقل أهمية بكثير، إلى حد بعيد، من أكثر الألاعيب الشريرة خبرة والتي قام بها دو كليرك وزملاؤه. وبالنسبة إلى "المعاناة الكبيرة" التي تم تفاديها، ففي الوقت الذي كان صحيحاً أنه لم تكن هناك حرب أهلية، كانت القرارات السياسية التي اتخذها مانديللا، ومبيكي وصحبهم "المعتدلون"، التي تستبعد حاجات أفقر الناس، قد سمحت باستمرار المعاناة بالاستثناء: التمييز العنصري بوسائل أخرى.

لقد ضُللت الأغلبية السوداء. لقد وعد المؤتمر الوطني الإفريقي أنه بعد أن يصير في الحكومة، فسوف يحترم روح ميثاق الحرية. وكان قد تم تبني برنامج إعادة الإعمار والتنمية بوصفه السياسة الرسمية قبل انتخابات العام 1994. لقد تعهد مانديللا، بأن حكومة التحرير سوف تتولى المسؤولية في المناجم، والمصارف،

والصناعات المحتكرة وأن "التغيير أو التعديل في آرائنا في هذا الخصوص أمران لا يمكن تصورهما".[57] ومع ذلك، ففي رحلات سفره الأولى المنتصرة إلى الخارج، تحدث مانديللا حديثاً مختلفاً جداً إلى جمهور المستمعين من رجال الأعمال.

وقد قال في نيويورك: "إن المؤتمر الوطني الإفريقي سوف يعيد إدخال السوق إلى جنوب إفريقية". ومع تكرار التطمينات من مانديللا، فإن رأس المال الأجنبي، الذي تقوده الشركات الأمريكية، عاد يتدفق إلى جنوب إفريقية، وضاعف حصته إلى ثلاثة أضعاف لتصل إلى 11.7 بليون دولار.[58] وكانت الصفقة التي لا يصح ذكرها هي أن البيض سوف يستبقون لهم السيطرة الاقتصادية في مقابل حكم الأغلبية السوداء: "تاج السلطة السياسية" في مقابل "جوهرة اقتصاد جنوب إفريقية" كما عبر عن ذلك الأستاذ الدكتور علي المزروعي.[59]

طوال مسار ثلاثة أعوام، اتخذت مجموعة صغيرة بضعة قرارات حاسمة وكانت هذه المجموعة حول ثابو مبيكي (الذي كان يشير على مانديللا)، ووزير المال تريفور مانويل ووزير التجارة أليك إروين. وكانت هذه القرارات هي: في العام 1992، إسقاط التأميم، وهو الذي كان عهداً من المؤتمر الوطني الإفريقي كرره مانديللا: وفي العام 1993، المصادقة على موافقة نظام حكم التمييز العنصري على الدخول في الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (غات)، وهي التي سلّمت فعلياً الاستقلال الاقتصادي. وفي العام نفسه، المصادقة على إعادة دفع 25 بليون من الدين الأجنبي الموروث من عصر التمييز العنصري، وعلى منح بنك الاحتياطي الاستقلال الرسمي، وعلى قبول القروض من صندوق النقد الدولي، وفي العام 1995، على إلغاء ضوابط تبادل النقد وهو الأمر الذي سمح للبيض الأثرياء بأخذ رؤوس أموالهم إلى الخارج في ما وراء البحار. وعلى نحو لا يصدق، فإن وزير المال مانويل سمح لاحقاً لأكبر شركات جنوب إفريقية أن تهرب من وطنها المالي وأن تقيم في لندن.

حين قابلت دوكليرك في لندن في العام 1998، سألته إن كانت مخاوف المؤتمر الوطني الإفريقي من حرب أهلية مخاوف مبررة، وسألته عن دوره في إرهاب الدولة الذي سعى إلى تخريب الانتخابات في 1994.

كان يستفيد على نحو جيد من السجائر التي كان يدخنها كالسلسلة. كان يطفئ واحدة ويشعل أخرى، وبدا وكأنه يبتسم. وبدأ وكأنه يبتسم. وبدأ بالقاء سلسلة من الجمل المختصرة التي تبدأ بكلمات مثل "أنا أنكر..". و"أنا لم أعرف شيئاً..".

لقد أنكر أنه كان يعرف أي شيء عن العمليات الإجرامية، الخفية التي أكدتها لجنتان وزاريتان كان هو قد رأسهما. وأنكر معرفته عن زمر الموت في فلاكبلاس، مقر قيادة الأمن الداخلي غستابو جنوب إفريقية، وذلك على الرغم من أن أحد قادتها وهو ديرك كوئتزي كان قد اعترف علناً. وأنكر أنه تسلم رسالة من كوئتزي تنبهه إلى أوامر الاغتيال التي أعطيت باسمه.

وسألته: "كيف يمكن لك ألا تعرف شيئاً، وأنت كنت موجوداً في كل الاجتماعات وكنت مطلعاً على كل التخطيط، وعلى كل الوثائق. أنت كنت رئيس جنوب إفريقية؟"

وقاطعني: "لم أكن أعرف أي شيء".

"عن أي أمر منها؟"

"أي أمر منها".

الدخان والصمت. وأخيراً قال: "أذكرك بأني منحت، مع السيد مانديللا جائزة نوبل للسلام".

وقلت: "إن مانديللا ينظر إليك بصفتك مخادعاً عن عمد، وهو لا يكاد يستطيع النطق باسمك".

هز كتفيه استهجاناً وأخذ نفخة من السيجارة. "هذا أمر يخصه..".

"ويقول مانديللا إنك لم تكن أكثر من رئيس نظام حكم أقلية غير قانوني وغير موثوق، وعنيف".

"يجب أن تفهم أن هناك فرقاً بين غير قانوني وغير مشروع".

"أنت وصفت (التطوير المنفصل) [التمييز العنصري] بأنه (مهمة مثالية)".

"تلك قضية معقدة... وأنا أعتقد أن التاريخ تحرك إلى الأمام. نحن الآن في سلام".

"ألم تربحوا أنت وزملاؤك البيض المؤمنون بالتفوق العرقي فعلاً؟"

تغيرت سيماؤه وكأن حقيقة سرية قد وضعت أمامه. ولوح بيده ليبعد الدخان.

وقلت له: "أنت ضمنت ألاّ يكون على السكان البيض أن يقوموا بعمل تغييرات جوهرية، وفي الحقيقة، كثيرون هم أفضل حالاً، وقوة شركات البيض لم تكن أبداً أقوى سابقاً مما هي عليه الآن".

ورد، وهو يبتسم: "إنه لحق أن حياتنا لم تتغير تغيراً أساسياً. مازلنا نستطيع أن نذهب إلى الكريكيت في نيولاندز ونشاهد الركبي. إننا نسير على ما يرام..".

"بالنسبة إلى الأغلبية، لم يتغير الفقر، هل تغير؟"

ومن الواضح أنه تحمس لهذا النقد الضمني للمؤتمر الوطني الإفريقي ووافق على أن أكثر إنجازاته دواماً كان تسليمه سياسات نظامه الاقتصادية، ومن جملتها حاكم بنك الاحتياطي نفسه، ووزير المالية نفسه في "حكومة الوحدة الوطنية" بعد 1994، وأخوة الشركات نفسها. وتحدث عن السود الذين "يسكنون الآن في بيوت كبيرة" بوصفهم المستفيدين من "العمل الإيجابي".

"أليس ذلك استمراراً للتمييز العنصري بوسائل أخرى؟"

"يجب عليك أن تعرف، أننا الآن حققنا إجماعاً عريضاً على الكثير من الأشياء".

حين سقت سيارتي إلى داخل مدينة العزل العنصري السوداء من مزوبومفيو في الكيب الشرقية كان المنظر أمامي كطيف الأشباح. فالبراميل المحترقة على جانب الطريق تنشر متاهة من خيطان الرماد، والأهرامات الأنيقة من العجلات وطاسات العجلات محروسة من رجال صامتين. وقمامات مبعثرة، متساقطة في شكل سلسلة من شاحنة، تتطاير مع الغبار. وبدا إحساس الفصل كاملاً عن سوق تسوق جنوب

إفريقية "الجديدة". ابتسم الأطفال في ملابسهم المدرسية الموحدة الملونة المكوية، وأما أولئك الذين كانوا أكبر سناً ببضعة أعوام فلم يبتسموا.

وقالت تشارتي كونداپل وبدقة شديدة: "كثيرون من الناس هنا لا يملكون مصدراً موثوقاً للعيش والبقاء، ولا أي توقع للعدالة في أشكالها المتنوعة".

وتشارتي معلمة مدرسة، وهي تسكن مقابل المدرسة في بيت هو أصلب من الكثير من البيوت في مزوبومفيو، على الرغم من أنه يستقر على جانب تل يميل مع حركة التربة حين نزول المطر الغزير. جلسنا في كراس كبيرة مريحة في غرفة جلوسها الصغيرة، وصنعت لنا الشاي. وعلى الرف كانت تعرض صور أطفالها، وفي الأغلب صور سيزوي، ابنها، في صور باللونين الأسود والأبيض، وقد خبا اللون وبهت. وظهر ابنها مثل الكثيرين من الشباب في معرض الحزن في غرف جلوس أمهاتهم، من الذين فقدوا من مدة طويلة في "الكفاح".

سيزوي كونداپل كان في الرابعة والعشرين حين اختفى ولم يرَ مرة ثانية أبداً، في وقت راوح بين أيار/مايو وتموز/يوليو من العام 1981. وبصفته شاباً نشيطاً في المؤتمر الوطني الإفريقي، كان قد أخذ إلى محطة شرطة جيفري باي في الكيب الشرقي، وهناك، ادعت شرطة الأمن، أنه حاول أن يقفز من النافذة ويداه مصفدتان خلف ظهره. وقال النقيب ديرك كوئتزي إن زميلاً له قد أخبره "بأنهم أحضروا طبيباً صديقاً لليرى كونداپل]، وأخبرهم أنه كان يوجد دم على الدماغ وأنهم إذا كانوا يريدون أن يتجنبوا حالة ثانية مثل ستيف بيكو، فإنه يتوجب عليهم أن يعملوا شيئاً ما نحو الحالة".

ووصف كوئتزي كيف أنه وزملاءه من "الوحدة الخاصة" فلاكبلاس ساقوا السيارة وأخذوا سيزوي إلى بلومفونتين و"عملوا عرضاً" من عزمهم على إطلاقه. ربطوه إلى شجرة واستخدموا "قطرات فقدان الوعي" لكي "لا يكون عليهم أن ينظروا إليه في عينيه" حين قتلوه. وقال كوئتزي: "أنا قدمت القطرات ووضعناها في شرابه من الجعة أو الشراب البارد. قطرتان تخدرانك، ثماني قطرات تستطيع أن

تقتلك. وبدا كوندايل مشوشاً وفاقداً للاتجاهات. وسقط مستوياً على ظهره. وأطلق عليه أحد الرجال النار في رأسه بمسدس ماكاروف مزود بكاتم للصوت".

ولم يترك أي تفاصيل. وقال لقد حرقت الجثة لمدة سبع ساعات في كوم من الخشب والعجلات. "وكان يجب تدوير العجز والأجزاء العلوية من الرجلين مراراً للتأكد من أنها تحولت إلى رماد". وفي الوقت نفسه، قام هو وزملاؤه بأكل اللحم المشوي وشربوا البراندي والجعة. "يكون من الأسهل الأكل في أثناء احتراق الجثث التي تستغرق سبع ساعات إلى تسع ساعات. وفي كل ميدان كانت واسطة العاملين حفل شواء اللحم والمسكر. والمهام لم تكن مجدولة بخطة، ولكن بعد كل مهمة كنا نعمل حفل شواء لحم. فحين يكون الجندي في حرب يجب عليه أن يأكل".[60]

وقال كوئتزي هذا أمام تشارتي كوندايل في صباح أحد أيام الصيف في جلسة استماع أمام هيئة الحقيقة والمصالحة. وكما هو معتاد، افتتحت الإجراءات بتراتيل التسبيح وبعد أن أدى رئيس الأساقفة صلاة لهذه المناسبة. وأشعلت شمعة بيضاء كبيرة، وهي تستدعي طقوساً دينية مسيحية وترمز إلى "استحضار الحقيقة". ثم تقرأ بصوت مسموع أسماء أولئك الذين كانوا من بين القتلى أو المعذبين أو المختفين الذين ستسمع قضاياهم وتفحص في ذلك اليوم. وفي نهاية شهادة تشارتي سئلت، مثلما سئل كل الشهود، إن كانت تستطيع أن تغفر للمجرمين جرائمهم فبقيت صامتة.

لقد قدم اثنان وعشرون ألف شاهد بيّناتهم في جلسات الاستماع أمام الهيئة. وكان أولئك الذين ارتكبوا الجرائم نيابة عن دولة التمييز العنصري قد منحوا العفو إذا استطاعوا أن يقنعوا الهيئة بأن أفعالهم كانت مدفوعة بدوافع سياسية. ومن بين سبعة آلاف من الذين طلبوا العفو أمام الهيئة، كان الثلث فقط ناجحين. وكان النقيب كوئتزي واحداً منهم. وعلى الرغم من أنه كان مداناً بقتل عضو نشيط آخر، فهو اليوم طليق.

وقد كتب المؤرخ توم لودج يقول: "سواء أكان الناس قد قالوا الحقيقة أم لم يقولوها، أو سواء أكان [الضحايا] يستطيعون أن يشعروا بأنفسهم متصالحين مع

معذبيهم السابقين أم لا، فإن هيئة الحقيقة والمصالحة كانت واسطة حاسمة في إعادة بناء السلطة الأخلاقية لدولة جنوب إفريقية، وفي إعادة صنع كيان الأمة".[61]

ومازالت تشارتي كونداي تنتظر حتى الآن لترى الدليل على "السلطة الأخلاقية للدولة". لقد عرض عليها شكل من أشكال السر المقدس، ولكن لم يعرض عليها أي تعويض. والمبلغ التافه المكون من 30.000 راند (2.700 جنيه إسترليني) ذهب إلى والدة طفل سيزوي. لم تكن هناك أي عدالة. وقالت تشارتي: "ماذا تهم المصالحة لي ولأسرتي؟ والتصالح من أجل من؟ من الذي يقدم التضحيات؟ وكيف يكون من الممكن لضحايا شكل من أشكال إبادة الجنس أن يتصالحوا مع مضطهديهم، الذين لم يعبروا ولو عن أسفهم؟"

وعلى الرغم من أن فكرة الاعتراف كانت قد تلقت القوة من ديزموند توتو، فإن سياسات هيئة الحقيقة والمصالحة انبثقت من صفقات مبيكي وزملائه التي عقدت حول المدفأة في مللس بارك هاوس ومن اجتماعات مانديللا السرية في سجن بولمور. لقد كانت كلمة "المصالحة" هي بند هروب نظام حكم التمييز العنصري.

وسألت تشارتي ماذا كانت ستقول لمانديللا وتوتو، اللذين أصرا على أن العدالة الجنائية لم تكن ضرورية، وأن العفو والمصالحة كانا "كافيين؟"

وأجابت: "يخالج المرء شعور بأن مانديللا لو كان ابنه قد قتل بالطريقة نفسها التي قتل بها أطفالنا، أو لو أن ابن رئيس الأساقفة توتو كان قد قتل، لما كانا كلاهما يتحدثان مثل ذلك الحديث. إن لهما كل الحق أن يغفرا لمعذبيهم ولسجانيهم، ولكنهما لا يملكان أي حق في أن يغفرا لقاتل سيزوي وفي أن يحميا ويحرما أسرته من العدالة".

"ما هي العدالة بالنسبة إليك؟"

"العدالة هي جلب القتلة إلى المحكمة، ومحاكمتهم، وإدانتهم، ومعاقبتهم. لا أريد لهم أن يشنقوا. ليست هذه هي المسألة. ذلك ليس عدالة: ذلك انتقام".

"بم شعرت وأنت ترين كوئتزي يروي قصته الفظيعة في جلسة الاستماع؟"

"شعرت بالغضب، طبعاً، ولكنني قلت لنفسي: (أنت مقرف) وكل تلك الأقاويل عن محاربة الشيوعية مقرفة محزنة".

"هل سبق لك أن واجهته مطلقاً؟"

"في جلسة العفو أراد أن يقابلني، وأراد كما قال (أن ينظر في عيوني.) وأن يقول كلمة آسف مقرفة. من دون عدالة، كان ذلك إهانة. أنا لا أجالس قاتل ابني، الذي سيخرج طليقاً... هذا الرجل قال إنه حين كان يحرق جسد ابني، كانت الرائحة المنبعثة من اللحم المحترق رائحة طيبة وإنهم كانوا يحتسون الجعة في ذلك الوقت. وكان هذا ما يساوي إلى حدٍ ما أكل لحم البشر، لا بل إلى عبادة الشيطان... قد نحصل على بعض المصالحة في هذه البلاد إذا كان هناك عدالة حقيقية لضحايا المجرمين مثل هذا، وإذا كان هناك عدالة اجتماعية لنا جميعاً، لأننا جميعنا كنا ضحايا".

"كيف تذكرين سيزوي؟"

"كان شاباً يؤمن بمبادئه إيماناً شديداً، وكان واحداً من أولئك الذين لم يتسببوا لنا بأي إزعاج في الأسرة. ولم يكن يحب أي شيء فيه فساد، وأراد دائماً أن يعيش مستقيماً. كان هادئ الحديث، وكان مفكراً. وكان من عادته أن يتحدث عن أنه يجب أن يتقدم إلى الواجهة، وأنت تعرف، خط الجبهة لكفاحنا، لمساعدتنا على أن نكون أحراراً. وطوال تسع سنوات، لم أكن أعرف ما حدث له. لقد تفرست في الوجوه في الشوارع، وكنت دائماً أبحث، وأتشبث بالأمل. وذهبت إلى المكان الذي ظننت أنه قتل فيه وأخذت بعض تراب الأرض، وكنت سعيدة للغاية في أن أسمع من أصدقائه أنه كان قد قال إن أهم شخصين في حياته كانا أمه وأخته. وأنت لا تكون متأكداً أبداً، وحين يحدث شيء مفزع فإنك تتعلق بذلك. إنها ليست عدالة، ولكنها تشفي القلب".

بعد مدة قصيرة من مقابلتي لتشارتي، أُرسل إلي شريط لبرنامج عُرض في التلفاز من قبل مؤسسة جنوب إفريقية للبث، ويدعى شعب جنوب إفريقية. وكان "الضيف الشهير" هو ديرك كوئتزي، وقدمه مضيف العرض بوصفه "القاتل الجدير بالاحترام".

وقال مقدم البرنامج: "وهكذا، يا ديرك، أهلاً، أهلاً".

"شكراً جزيلاً لك. شكراً لك على هذا الشرف في أن أكون في برنامجك وأنا أقدر ذلك".

"ديرك، شرفنا بكل معنى للكلمة. ماذا يمكن أن تقول لشاب يفكر في مسيرة وظيفية في قوات الشرطة؟ أنت تعرف، أن الشاب يقول لنفسه (م م م م م، أنا أريد أن أكون شرطيا)".

"أنا أقول، حسناً. إنها مغامرة، إنها مغامرة تحول المرء إلى..".

"مغامرة، إيه؟ حسناً، شكراً لك، يا ديرك!"

لقد منح ديرك كوئتزي العفو عن قتل ستة أشخاص. وهو ليس طليقاً الآن وحسب، بل لقد أعيد توظيفه، في العام 1995، في وكالة الاستخبارات الوطنية لجنوب إفريقية. وتقاعد في العام 2003 وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا النص، يعمل هو لشركة أمنية خاصة في بريتوريا – وهي شركة لتمكين السود. وكان مضيفه المتزلف في محطة التلفاز هو دالي تابو، ابن الراحل أوليفر تابو، رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي.

وفي فلاكبلاس، كان القاتل المساعد لكوئتزي هو جو ماماسيلا، الذي تبجح علناً أنه كان يستطيع أن "يتذكر قتل أربعة وأربعين شخصاً". وهو أيضاً طليق حر، بعد أن عمل لإدارة المدعي العام إلى أن تقاعد، على معاش.[62]

في 8 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1997، أخذت سيارة أجرة وذهبت إلى جلسة استماع لهيئة الحقيقة والمصالحة في كيب تاون. لقد كان يوم الجنرالات وما كان يمكن أن يترك. ومن أجل التأهل للحصول على العفو، كان يجب على المتقدمين أن يقدموا كشفاً كاملاً عن جرائمهم وأن يُظهروا أنهم كانوا يتصرفون بتفويض رسمي: كانوا "يتلقون الأوامر فقط". نعم، ولكن بالتأكيد أن جنرالات التمييز العنصري أصدروا الأوامر. ومن خلال ابتسامة خبيثة، قال لي سائق سيارة الأجرة، "أنت تمتع نفسك في الكنيسة، يا رجل".

كان اللواء جوب جوبرت أول من وقف على المنصة. وكان له أنف مسطح لملاكم محترف وعينان مرتبكتان خجلاً كعيني طفل شكس. وبما أن هذا اللواء كان رئيس القوات الخاصة لجنوب إفريقية، فقد كان قاتلاً بامتياز. ولم يكن ضحاياه جنوداً، بل من المدنيين والنشيطين السياسيين. لقد طلب العفو عن قتله لعشرة شباب بالقرب من حدود بوتسوانا، ومنهم الوزير في وزارة بانتوستان بييت نتولي، ونشيط سياسي من المؤتمر الوطني الإفريقي هو الدكتور فابيان ريبيرو وزوجته فلورنس: وفي مجموعهم كانوا ثلاثة عشر قتيلاً.

وقال: "كنت مخولاً السلطة لإرسال قوات لقتل الأعداء المفهومين للدولة وكان ذلك التخويل من رئيس قوات الدفاع، آنئذ الفريق جاني غيلدينهويز".

وسئل: "كيف تم تخويلك السلطة بذلك، يا لواء؟"

"في إحدى الأمسيات في مهمة عمل شرحت الخطة في كلام عام للفريق غيلدينهويز. وأخبرني بأنه كان يعتقد أن الخطة كانت جيدة. وقبلتها بذلك الشكل. وبتلك الملاحظة خولني [هو] سلطة التنفيذ... ومبدأ أن الناس كان يجب أن (يستأصلوا) كان مبدأ (مقبولاً) في أعلى مستوى".

"هل استأصل تعني اقتل؟"

"أعتقد أن علينا أن نكون حريصين جداً حين ننظر إلى كلمة استأصل. فأنا أستطيع أن أستأصل شخصاً بالقبض عليه. وأستطيع أن أحيد شخصاً بالقبض عليه. ويجب التعامل مع كل حالة وفق خصائصها. فإذا كنت تستطيع أن تستأصل شخصاً بألا تقتله فآنئذ تستطيع أن تقبض عليه. وأنا لا أعتقد أن كلمة (استأصل) المقبولة عموماً تعني أقتل".

وبعده جاء اللواء جوهان كوئتزي، المفوض السابق للشرطة، الذي لوح بمعجمين أفريكانيين، أظهرا، كما قال، أن كلمة "استأصل" كانت تعني "نقل" إلى مكان الحجز. وكان يحسب أن مرؤوسيه ربما كانوا قد "أساؤوا فهم المعنى"، لأنهم لم يملكوا المعاجم "لفهم هذه الأنواع من الأشياء".

وبعده جاء اللواء جوهان فان دير ميروي، الذي أعاد كل الموضوع إلى "اختيار مشؤوم للكلمات" ولم يعرف إن كانت كلمة استأصل قد عنت "توصيل رسالة دقيقة". ووافق على أن الناس قد قتلوا، ويا للأسف، لأن الكلمة كانت قد فهمت من "المرؤوسين" بأنها تخول السلطة بالقتل.

واستمر هذا "الحوار" متتابعاً لمعظم جلسات استماع يومين حتى أخذ المنصة العميد وليام شون. وكان يُنظر إلى العميد بوصفه "حجة" في معنى "استأصل" بعد أن كان أدار فلاكبلاس، وهو مقر قيادة زمر الموت لديرك كونتزي وجو ماماسيلا. وبعد أن خرج عن المألوف وكسر المأزق اللغوي قال: "إن كلمات مثل (استأصل) و(تخلص من)... أشارت إلى قتل الناس فقط".[63]

لقد منح الجنرال جوبرت العفو عن قتله ثلاثة عشر شخصاً.

واقتحمت هذه المهزلةَ مناقشةٌ واحدةٌ مؤثرةٌ. وجاءت المهزلة من جاسوس شركة أمن سيئ السمعة، هو كريغ وليامسون، الذي شارك في سلسلة من التفجيرات الإرهابية، ومن جملتها تفجير العام 1992 لمكاتب المؤتمر الوطني الإفريقي في لندن، وعدد من أعمال القتل السياسي. وسأل هذا الرجل، لماذا يتعين على مقترفي جرائم التمييز العنصري أن يتحملوا على كواهلهم كل اللوم؟ وأجاب هو قائلاً: "إن أسلحتنا، وذخيرتنا، وزينا الموحد، وسياراتنا، وأجهزة اتصالاتنا وتجهيزاتنا الأخرى"

كانت كلها قد طورت ووفرت على يد الصناعة. وماليتنا وأعمالنا المصرفية أقامها المصرفيون الذين أعطونا بطاقات ائتمان سرية من أجل العمليات السرية. وقسيسونا صلوا من أجل نصرنا وجامعاتنا علمتنا في الحرب. ودعايتنا حملتها وسائط الإعلام وسادتنا السياسيون حصلوا على التصويت الذي أعادهم إلى السلطة [من البيض] مرة بعد مرة مع أغلبيات متزايدة باستمرار.[64]

لم يطلب أحد من أولئك الذين وردوا في قائمة وليامسون العفو، لأن "عملية المصالحة" لم تتطلب ذلك. وشروط هيئة الحقيقة والمصالحة حُدِّدت تحديداً ضيقاً

لتكون النتيجة أن الحل الوسط السياسي "التاريخي" الذي صنعه المؤتمر الوطني الإفريقي صار حلاً وسطاً أخلاقياً تاريخياً. ولم يسمح فقط لديرك كوئتزي بأن يتبجح عن "مغامراته" على شاشة التلفاز وللجنرالات المدلسين بالدندة حول معنى "استأصل" بل لقد سمح لمعظم بيض جنوب إفريقية ولمؤسساتهم أن يتظاهروا جميعهم، مثل الألمان الطيبين، بأنهم كانوا قد عارضوا التمييز العنصري طوال الوقت. ومع حسٍّ إديث فينتر بالمفارقة الساخرة وبعقدها البالغ ثمنه 100.000 جنيه إسترليني قالت عملياً الشيء نفسه.

وكتب تيري بل في عمل لم ينته: جنوب إفريقية، والتمييز العنصري، والحقيقة، "لم يتم القيام بأي فحص رصين عن النظام الذي أحدث بعضاً من الهندسة الاجتماعية العرقية التي كانت من أشد الأعمال ترويعاً في الأزمنة الحديثة. وبدلاً من ذلك الفحص، كان هناك تركيز على نسبة من الضحايا الفرديين الذين تقدموا بأنفسهم، وعلى معذبيهم المباشرين، وعلى القتلة، وعلى الظالمين المضطهدين. وهذا التكرار المركز تركيزاً ضيقاً على سفك الدماء والوحشية أغمض في الغالب أكثر مما أوضح وجلاً. لقد عُرض التمييز العنصري وكأنه رسم ساخر(كاريكاتور)... [لا] جريمة ضد الإنسانية".[65] ومع ذلك فإن برودربوند الإفريكانية "جعلت طبيعة إدارة التمييز العنصري طبيعة فريدة على ما يرجح". فقد ضمت معظم الساسة الحكوميين القادة، والجنرالات، والقضاة وكبار ضباط الشرطة في التمييز العنصري لجنوب إفريقية. لا بل إن برودربوند لم تفاتح لتظهر أمام الهيئة.[66]

وكانت رسالة "عملية المصالحة" هي أن مقترفي جرائم الدولة لن يعتبروا مطلوبين للمحاسبة ولا مسؤولين، وكانت حصانتهم محمية. وقد كتب محمود منداني، المؤلف والأستاذ الجامعي، يقول: "تخيل أن هيئة الحقيقة كانت قد تعينت في الاتحاد السوفيتي بعد ستالين وأن هذه الهيئة لم تقل أي شيء حول معسكرات الاعتقال (الفولاغ). ما هي الصدقية التي يمكن أن تكون لها؟ والمعادل في جنوب إفريقية لمعسكرات الاعتقال كان يسمى الإزالات القسرية والتي يشكل ضحاياها

3.5 مليون نسمة من المجتمعات التي كانت بلا هوية، لا النشيطين السياسيين الأفراد. إنهم يشكلون كارثة اجتماعية، لا مجرد مأزق سياسي. ألم تكن هذه الإزالات القسرية خروقات فاضحة ضمن الشروط المحددة من القانون؟"[67]

إن معسكرات الاعتقال الريفية في ديمبازا وفي لايمهيل، التي هلك فيها عشرات الآلاف من الأطفال، كانت إنتاج سياسات مكوَّنة تكويناً منهجياً حريصاً على أيدي المتعصبين من البرودربوند، ومع ذلك، كما يشير بل، فإن سجلات [البرودربوند] بقيت سليمة. وشعارها (قوتنا تكمن في السرية) تم اتباعه بدقة، وهذا هو ما ضمن أن تاريخها، على خلاف سجلات الدولة، وهو التاريخ الأساسي لنظام معروف باسم التمييز العنصري، لم يكن أبداً تحت التهديد".[68]

وفي 9 و10 حزيران/يونيو من العام 1998، قدم الدكتور شولك جينس فان رينزبيرغ شهادة لهيئة الحقيقة والمصالحة حول مختبر بحوث رودبلات، الذي كان الدكتور في منصب مدير فيه. وكان هذا المختبر سراً من الأسرار العليا، وهو منظمة كانت تدار من العسكريين وهو المختبر الذي طور سموماً قاتلة لتستخدم ضد "أعداء جنوب إفريقية". لقد صنع المختبر متعضيات الكوليرا، والجمرة الخبيثة التي يتعين أن توضع على الطيَّات المصمّغة من ظروف الرسائل وفي السجائر، وفي عصي المشي التي كانت تطلق سهاماً قاتلة تعطي شعوراً مثل لسعة نحلة. والاقتباس التالي هو من وثيقة شهادته:

جيرومي تشاسكالسون (عن الهيئة): لماذا لا نأخذ نظرة على واحدة من قوائم مشاريع رودبلات؟ وثيقة هيئة الحقيقة والمصالحة – 30 قد تكون مكاناً مفيداً للبدء.

فان رينزبيرغ: [هذه] قائمة من 163 مشروعاً بدأ بها المختبر في العامين 1985، و1986، وابتداء من العام 1990 فصاعداً. ومن 163 مشروعاً فإن 66 بالمائة اهتمت بإمكانية السموم القاتلة.

تشاسكالسون: هل أستطيع أن أحيلك إلى وثيقة أخرى... في الصفحة الأولى من هذه اللائحة لدينا ثلاث زجاجات من الجعة مع بوتشولاينم وثلاث زجاجات من الجعة مع ثاليوم. ولدينا سكر مع سالمونيللا، ولدينا بعض الويسكي وباراكوات، ولدينا جنين قرد الرباح (البابون)، ولدينا سجائر مع ب – مئبرية، وخمس قطع شكولاتة

قهوة مع ب – مئبرية، وبعض النعنع مع ألديكارب، وشوكولاتات بالنعنع مع السيانيد، والويسكي مع كولشيسين – ويبدو أن اللائحة تستمر على هذا النحو. أتعتبر أن هذه اللائحة يمكن أن تكون قد استخدمت من أجل شكل ما من أشكال البحث العلمي، أم هي لائحة بأسلحة قتل؟

فان رينز بيرغ: هي بلا شك لائحة بأسلحة قتل، ولا قيمة لها في البحث مهما يكن.

تشاسكالسون: يا دكتور، هل أنت واع أن مادتين على الأقل في هذه اللائحة تسببان أزمة قلبية حادة ولهما أيضاً ميزة مبهمة مريبة وهي كونهما لا يمكن تتبع أثرهما؟

فان رينزبيرغ: وتلك ميزة كان الطلب عليها طلباً شديداً للغاية...

تشاسكالسون: هل تستطيع أن تسهب في ذكر الأسباب التي دعتك إلى قول ذلك؟

فان رينزبيرغ: كان أكثر توجيه متكرر [لنا]...هو تطوير شيء ما تستطيع أن تقتل به شخصاً وأن يجعل موته يشبه موتاً طبيعياً، وأن ذلك الشيء كان ينبغي أن يكون غير قابل للكشف عنه في مختبر عادي للطب الشرعي... وكانت هناك حادثة لمنشق أسود كان قميصه قد تلقى لمسة، ربما مع الباروكسون أو مع واحد من سموم الأعصاب، كانت هذه طريقتهم النظامية للتخلص من أولئك الأشخاص، وأعار قميصه إلى صديقه فمات صديقه. [وكانت هناك أيضاً] خطط لتلويث الدواء الذي كان يستخدمه ماندليلا بسم معدن ثقيل، وهو الثاليوم. وكان الدكتور باسون [ووتر باسون هو الذي أدار المشروع] قد ذكر أنك إذا أعطيت الجرعة الصحيحة فقط، فإنك تستطيع أن تتسبب بما يبدو أنه تفش لمرض التهاب السحايا أو التهاب المخ. وبهذا الفعل، ذكر أنه في تمرير كان قد أعطى بعض الثاليوم بالفعل– وفي الواقع قال "نحن" – إلى ستيف بيكو.

وقال فان رينزبيرغ إنه تلقى أمراً من الدكتور باسون بأن يطور لقاحاً لجعل السود عقماء. وكان هذا مشروعه الكبير، الذي كان "ضبط السكان" لمكافحة "موجة مد أسود". وكان "الحلم الكبير" في المختبر هو تطوير سلاح حيوي كيماوي

محدد للعرق، "قنبلة سوداء" يكون من شأنها أن تقتل السود أو تضعفهم ولا تفعل ذلك بالبيض. وقال، إن السبب كان هو الخوف من "التمرد والشيوعية". لقد تسلم العمل في المختبر معتقداً أن عمله كان سيحمي جنود جنوب إفريقية ليدافعوا عن بلدهم ضد الشيوعيين.

وقال: "وفي غضون أسبوعين من الالتحاق بالعمل، أدركت أن هذا ليس عملاً دفاعياً، إنه عمل هجومي. لقد كان صدمة لي. وكانت هناك حادثة زعموا فيها أنهم قتلوا شاباً أبيض مجنداً كان مسانداً للمؤتمر الوطني الإفريقي بواسطة مضاهاة عضة الأفعى".

وسئل لماذا لم يترك؟ وأجاب: "إذا غيرت ولاءك فأنت ميت، حقاً؟ فماذا تفعل إذاً؟ تحاول أن تترك بهدوء وعلى أمل أنهم لن يقتلوك". وقال إنني في نهاية المطاف فصلت "بعد أن تمت مواجهتي لباسون بشأن آرائي الليبرالية" – ولكن بعد أن ارتقى إلى مدير المختبرات فقط.[69]

وكان فان رينزبيرغ ينتظر ليسمع إن كان قد منح العفو حين رتبت أنا أن أزوره في مزرعته في مقاطعة مبومالانغا، وكانت سابقاً جزءاً من دولة الأورنج الحرة. وكانت أقرب مدينة هي ستاندرتون، التي سمي شارع بييت ريتييف فيها باسم جنرال البوير الذي قتله الزولو، والحصار الكبير في معركة نهر الدم حدث غير بعيد من هناك. وفي فندق توريستو، تعمل "الحانة الخاصة" للبيض فقط، وليس هناك من حاجة إلى لافتات. وهناك ثلاثة محال للرهونات ولافتة جريئة، دائمة على الجسر تقول: "المسيح يحبك".

ومزرعة فان رينزبيرغ تشرف على أرض تنحدر انحداراً شديداً حتى تصل نهر فال. وقال، وكأنه يقول نصف نكتة: "فيما مضى، كان السود إذا جاؤوا فوق تلك التلة، كانوا يتعرضون لإطلاق النار عليهم. والآن، يقتل المزارعون البيض في جميع الاتجاهات هنا". وذكرني قوله هذا "بموجة المد الأسود" التي سبق له أن ذكرها في جلسات الاستماع. رجل ضخم، وهادىء، وصف هيئة الحقيقة والمصالحة بأنها

"طريقة رائعة لتنظيف البلاد من الخفايا غير السارة، ومن الأحقاد، والمظالم، والإشاعات، والمشاعر المتخيلة وغير المتخيلة". كان مفعماً بالأمل على نحو واضح.

"هل وجدت الإدلاء بالشهادة صادماً؟ لقد كنتَ صريحاً".

"نعم، كان ذلك مثل مزج بودنغ، طبق حلو، مع غيمة بعيداً عن كاهليّ [هكذا]. وأنت تعرف، نحن كنا مختبئين... كان هناك تهديد حقيقي بالاغتيال والموت:" كلمة "نحن" كانت تعني هو نفسه، لقد استخدم ضمير جمع المتكلمين استخداماً كثيراً، مثل آخرين كانوا ينشدون العفو عن الجرائم.

"هل حاولت وحذرت أي واحد من الضحايا المتحملين؟"

"لقد حاولت أن أصل إلى رئيس الأساقفة توتو، وأخبره، ولكن ذلك كان صعباً..".

"ماذا كان يتعين أن يحدث لتوتو؟"

"لقد وصلوا إلى بيته وحاولوا أن يلوثوا طعامه، ولكنه بعد ذلك علم بشيء ما ولم يكن يقبل طعاماً ملوثاً كان يعطى له في طائرة. لقد دفعه جانباً وقال: (لست سعيداً بذلك.)

"لماذا عملت في المختبرات؟"

"كانت هناك الجزرة لاتفاقية [راتب] سنوي، وبطاقة السفر وكل ذلك. [وأشار إلى مرسيدس موجودة في مرآبه، كانت قد جاءت مع الوظيفة.] وربما سأكون عاملاً في قضية السرطان".

"ولكنك صرت المدير، تشرف على كل شيء كان يجري هناك".

"حسناً، أنا كنت مدير خدمات المختبر..".

"أحد زملائك الذين أدلوا بشهادتهم قال إنك وافقت معه على معظم العمل الذي كان مكرساً لصنع أسلحة قتل. وأنت أيضاً أخبرت الهيئة بأنك كنت جزءاً من برنامج كان يستهدف خصوبة السود".

"أنت تجد موقفي من الصعب أن ينسجم؟"

"نعم".

"حسناً، لو أنني خرجت وقلت (نعم) للعالم لكنتُ الآن ميتاً".

"كيف يبدو لك الوضع الآن، وأنت تعيش تحت حكومة سوداء، كانت كابوساً لمؤسستك؟"

"تناقض، نعم، تناقض... يجب عليك أن تتذكر، أنا أعرف سوداً وأنا طفل، لقد لعبت معهم، وكنت أعرف أنهم بشر مثلما كنت أنا بشراً".

وفي نهاية المطاف رفضت الهيئة منح العفو للدكتور شالك جانز فان رينزبيرغ. وعلى الرغم من أنه أقر بصنع سموم قتلت الناس، فقد أخبر الهيئة بأنه لم يعرف أبداً بدقة من هم الذين قتلوا بتلك السموم. وكانت القواعد التي تعمل الهيئة بموجبها تقضي بأن العفو يمكن أن يمنح فقط في حالات معينة من الإساءة إلى حقوق الإنسان. ومن الممكن أن يكون الدكتور في يوم من الأيام متهماً بأنه كان متواطئاً مع القتلة، ولكن ذلك غير مرجح. لقد أعطى شهادة من أجل ملاحقة رئيسه السابق في المحكمة، الدكتور ووتر باسون، رئيس البرنامج الكيماوي والحيوي لنظام حكم التمييز العنصري، الذي أنكر كل الخطايا وبرئت ساحته. وبغض النظر عن استعراض الشهود والبينات التي تبدو بلا حدود، فقد صدر الحكم بأنه لا يمكن أن يحاكم من أجل جرائم القتل التي اقترفت خارج البلاد، وعلى نحو ملحوظ في نامبيا. وباسون، المعروف باسم "د. موت" هو الآن "متحدث حوافز" وهو مطلوب من جماعات من مثل مجلس جنوب إفريقية لنساء الأعمال.

وقرب نهاية حياة هيئة الحقيقة والمصالحة، عقدت ما دعي "جلسات استماع مؤسسية". ودعت في الجلسة الأولى أعضاء قادة من القضاة للإدلاء بشهاداتهم. ولم يستجب ولو قاض واحد. وقال رئيس الأساقفة توتو: "يجب أن أعبر عن كربي". وحين كان على وشك أن ينتقل بالإجراءات إلى المرحلة التالية، ارتقت منصةَ الشهادة شابةٌ محنكة مناهضة للتمييز العنصري، هي بولا ماكبرايد، وألقت مرافعة من نوع إني أتهم لم يكن أحد مهيأً لسماعها. بعد أن كانت قد تزوجت

النشيط السياسي روبرت ماكبرايد وكان من الذين حكم عليهم بالموت في الثمانينات من 1980 في محاولة لإنقاذ حياته لكان قد فجر حانة في ديربان، وقتل شخصين]، وعرفت بولا شيئاً عن التمييز العنصري، وعن القانون، وعن القضاة.

وقالت: "إن القضاة فرضوا تنفيذ كل ناحية من التمييز العنصري من أصغرها وأحقرها إلى أشدها قتلاً وإبادة للجنس. لقد حكموا على الناس بالسجن لأنهم مشوا في شوارع بلدهم الخاص بهم من دون تصريح، ومن أجل استخدام منافع (بيضاء)، ومن أجل حب شخص من اللون الخطأ، ومن أجل محاولة العيش، أو إنشاء عمل خارج الأحياء الخاصة (الغيتوات) والبانتوستانات. لقد أرسلوا الناس إلى المشانق وهم يعرفون معرفة كاملة أنهم لم يكن لهم دفاع مختص. وقبلوا بسعادة بيانات كانت قد حُصّلت بوضوح من خلال التعذيب... وهم أيدوا السرقة الكبرى لبيوت الناس السود ولأراضيهم. وهم عاقبوا خصوم نظامهم – لأنه كان نظامهم – بأقسى سلسلة من الأعمال الوحشية... ومع ذلك، فحتى الآن، نجحوا في المحافظة على السخافة غير المعقولة والدعاية لها وهي أنهم كانوا فوقها كلها نوعاً ما – حياديين".

وبعد أن لاحظت أن قادة حركة التحرير لم يؤمروا بالظهور أمام الهيئة، سألت: "لماذا لم يؤمر القضاة من طرف هيئة الحقيقة والمصالحة ليعللوا ما كانوا قد فعلوه في تاريخنا؟"

واجتمع توتو وأعضاء الهيئة المهتزين في أثناء انفضاض الجلسة للغذاء لمناقشة تحديها. وروت الغارديان أنه "لم يتم التوصل إلى أي قرار، ولكن كان من المعتقد أن العاطفة كانت في صالح مواجهة هيئة القضاء إذا ثبت أن ذلك كان ضرورياً". ولكن لم تصدر أي أوامر استدعاء" ولم تكن هناك أي مواجهة.[70]

نيف وسبعون تقريباً من الشركات، ومنظمات العمل والأفراد قدموا عروضاً مكتوبة. وعكست كلمات بعضها احتقارهم للهيئة. غرفة مناجم التعدين، وهي تمثل أكثر الصناعات طمعاً، وقسوة بلا رحمة، وربحية وقتلاً في العالم، لخصت قرناً من التعدين في جنوب إفريقية في ست صفحات ونصف فقط. وقالت الوثيقة إن

التعدين كان "مساعداً في الأغلب" في تطوير جنوب إفريقية، ووفر التوظيف للناس من "مناطق ريفية عميقة" و"أسهم في النشاط الاقتصادي في تلك المناطق".

الناس السود الجالسون في الشرفة هزوا رؤوسهم، وقال أحدهم: "ياللعار". فالأماكن التي جاء منها رجال التعدين في جنوب إفريقية، من مثل الترانسكي وليسوتو المجاورة، بقيت أكثر المناطق إهمالاً وفقراً على الأرض. فعشرات الآلاف، وربما مئات الآلاف من رجال التعدين وعائلاتهم عذبتهم الآلام الناجمة عن آثار الأمراض المهنية التي بقيت فيهم بلا علاج ومن دون أي تعويض.

وقالت وثيقة غرفة مناجم التعدين: "منذ العام 1960، زادت أجور المستخدمين السود حسب المقياس الحقيقي بنسبة 492 بالمائة". وفي الحقيقة، حتى السبعينيات من 1970، كان يدفع إلى رجال التعدين، بالمقياس الحقيقي، أقل مما كان يدفع لهم في القرن التاسع عشر. والموضوع المفقود من الصفحات الست والنصف هو أي ذكر لتسعة وستين ألف رجل تعدين قتلوا في أثناء العمل، الذي كان يوصف بأنه "خطر" بطبيعته فقط.[71]

وبالنسبة إلى غرفة مناجم التعدين، لم يتغير الكثير في خمسة وثمانين عاماً. ففي العام 1912، صرح رئيسها بالقول: "المطلوب هو بالتأكيد سياسة يجب أن ترسخ بشكل دائم أن ملكية الأرض، ما عدا الاحتياطات الخاصة، يجب أن تكون في أيدي العرق الأبيض، والفائض من الشباب بدلاً من احتلال الأرض في كسل عن العمل... يجب أن يكسبوا معيشتهم بالعمل في مقابل أجر"[72] وفي العام التالي، طرد قانون الأرض الأفارقة إلى "محميات محلية"، وهناك كان عليهم أن يكونوا مصدراً رخيصاً للعمال لصناعة المناجم وللزراعة. و"بيوتات" التعدين، من مثل استطالة الشركة الأنجلو أمريكية، كانت طليعة المجمعات المماثلة للسجون التي استعبدت قوة العمل تقريباً، وسلبت إنسانية رجال التعدين ودمرت أسرهم ومجتمعاتهم.

وبعد أن تم التصديق على مشروعية التمييز العنصري في العام 1948، كانت قوة الشركة الأنجلو أمريكية قوة لا يمكن وقفها. وكان اقتصاد جنوب إفريقية

الصغير نسبياً يمتلك أربعة أعمدة: المجموعات الثلاث المستندة إلى التأمين والشركة الأنجلو أمريكية، وهي بحصصها التي تقرر غالباً نصف التعامل في سوق الأسهم في جوهانيسبيرغ، كانت "الحكم النهائي" لرأسمالية التمييز العنصري. وبالنسبة إلى العالم، روجت الشركة نفسها بوصفها خصماً للتمييز العنصري، وتأسست لها جمعيات خيرية متنوعة ومؤسسات متنوعة لإظهار هذه "الليبرالية".

في أثناء الستينيات من 1960، ازدهر اقتصاد جنوب إفريقية، بغض النظر عن العمل المخزي على مستوى العالم بعد مجزرة شاربفيل في العام 1960. وارتفع الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 9.3 بالمائة، أكثر مما هو في أي بلد في أوروبة أو أمريكا الشمالية. لقد كانت الشركة الأنجلو أمريكية، مع نفوذها العالمي الضخم، هي التي فعلت أكثر العمل لوقف انسحاب الاستثمار الأجنبي في أعقاب شاربفيل وللإنقاذ الفعال للتمييز العنصري.[73]

وفي داخل مجتمع جنوب إفريقية، الشركة ملكية. لقد أسسها السير إرنست أوبنهايمر، والد هاري وخليفة "لوردات الراند"* الذين امتصوا الذهب والماس من جوهانيسبيرغ، ومركز العائلة في برينتهيرست، خمسون هكتاراً مصونة مشذبة في الضواحي الثرية والمحاطة بالجدران من جوهانيسبيرغ. وقد كتب مؤلفو: جنوب إفريقية: هئية شركة موحدة(آي ان سي)، "لقد كان ميلادهم، وزواجهم، مصدراً لا ينضب لإعجاب وسائل الإعلام".

في أثناء الخمسينيات من 1950، كانت صحف جوهانيسبيرغ تعلن برزانة: "سوف تغادر السيدة هاري أوبنهايمر جوهانيسبيرغ متوجهة إلى لندن في يوم الجمعة، في 18 كانون الأول/يناير... لمرافقة طفليها عائدين إلى المدرسة". وسوف يتذكر البيض في جوهانيسبيرغ لمدة طويلة حفل زواج ماري الأول في العام 1965، حين وقع شغب بين آلاف الناس الذين كانوا يكافحون لنيل لمحة من العروس الشابة، وقد عادت مفعمة بالنشاط من ظهورها الأول في الموسم في لندن. لقد كان هناك 500

* استخدم هذا اللفظ للدلالة على رجال الأعمال الذين سيطروا على مناجم تعدين الماس والذهب في جنوب إفريقية في طوره الطليعي في السبعينيات من 1870 وحتى الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

زجاجة من الشامبانيا من أجل 1000 مدعو، لم يكن واحد منهم إفريقياً... وكانت هدية هاري لصهره سيارة رياضية ماسيراتي ذات بابين (كوبيه)، وهي السيارة الأولى من هذا النوع في إفريقية.[74]

وفي العام 1997، كان ثلاثي الشركة الأنجلو أمريكية يجلس إلى طاولة طويلة مغطاة بقماش أبيض في فندق كارلتون جوهانيسبيرغ، وهو المكان الذي كانت تجتمع فيه هيئة الحقيقة والمصالحة في ذلك اليوم، وثلاثي الشركة الأنجلو أمريكية هو: نيكي أوبنهايمر، حفيد هاري، وبوبي غودسيل وجوليان أوغيلفي – تومبسون. بدوا مسترخين، لا بل شاردي الذهن، وقال غودسيل للهيئة إن التعدين كان "مُنشِئاً للثروة التي نفعت الكثيرين". وبلكنة لغة من عصر قبعات لب الشجر، وصف أوغيلفي تومبسون الشركة الأنجلو أمريكية بأنها "حامل المشعل" ضد التمييز العنصري وقال: "بالتأكيد ما من أحد يريد أن يعاقب النجاح. هل تعتقدون أنتم حقاً أن جنوب إفريقية كان يمكن أن تكون أفضل حالاً لو أن أرنست أوبنهايمر كان قد ذهب إلى أستراليا؟"[75]

وهذه الممانعة نفسها كانت واضحة في مقابلتي مع مايكل سبايسر في وقت جلسة الاستماع. كان سبايسر نائب الرئيس التنفيذي للشركة الأنجلو أميريكية. وتحت حكم التمييز العنصري، لم تشعر الشركة بأي التزام لشرح نفسها علناً. ومع الديمقراطية جاءت "العلاقات العامة"، وولّي المسؤولية سبايسر الهزيل، غير الميال إلى الابتسام.

وقال لي: "أوه، هو أنت، لو علمت أنك أنت لما كنت وافقت على هذه المقابلة".

"لم يكن في الأمر مؤامرة، يا سيد سبايسر. لقد أعطي اسمي إلى سكرتيرك. هل نبدأ؟... لقد قدرت التكلفة الإنسانية لكل طن ذهب استخرج بحياة إنسان واحد واثنتي عشرة إصابة خطيرة..".

"تلك إحصاءات تبعث على الاهتمام الكبير... كل التعدين له مخاطر، وتعدين جنوب إفريقية هو أحفل التعدين بالمخاطر. ما على المرء أن يعمله هو أن يقلل المخاطر

وذلك يتطلب عدداً من التفاعلات: تفاعلات فنية، وتفاعلات إنسانية، وأعتقد، أننا سنقبل الآن بكل سعادة تفاعلات الإدارة/الموظف، والتي ربما لم تكن دائماً قد وجدت إلى الدرجة التي كانت مرغوبة".

واقتبست من تقرير صناعي قال إنه في عام واحد كان لدى الشركة الأنجلو أمريكية أعلى معدل وفيات في تعدين الذهب في جنوب إفريقية.

وقلت: "لا أستطيع أن أجد أي رد من الشركة، هل تود أن ترد الآن؟"

"مؤسف للغاية... مؤسف للغاية... كلمتي النهائية هي أننا مهتمون بشأن سلامة التعدين، نحن نعمل مع الاتحاد، ونحن نعمل كل ما نستطيع..".

واقتبست عن مهندس تعدين حكومي السيد باكيّر: "في كل حادثة تقريباً، يستطيع المرء أن يجد أسباباً داعمة. هناك نقص في الإدارة، والإشراف والتدريب، و[هناك] إهمال: تطبيق متراخ للمقاييس". وسألت إن كان المهندس قد شرح الموقف خطأ.

"لا، أعتقد أن ذلك بالتأكيد جزء من قضية أوسع بكثير".

"ماذا تعني؟ ما هو رد شركتكم؟"

"لقد أعطيته لك..".

"إن البحث قد أظهر أن ثلث رجال التعدين يعانون مرضاً مهنياً خطيراً، وأنهم ينهون حياتهم بالقليل جداً من التعويض".

"لقد زيدت المبالغ".

"بأي قدر زيدت؟ هل يمكن أن تعطني مثالاً؟"

"لا أملك الأرقام، لا..".

"ألا تجد الأمر غير عادي أن شخصاً في مركزك في شركة تعدين غير قادر على الإجابة عن سؤال بسيط حول تعويض رجال التعدين؟"

"لا أجد ذلك غير عادي مطلقاً"

وعلى نقيض سمعة هاري أوبنهايمر بأنه إصلاحي، وفقاً للكاتب الرسمي لسيرته، أنتوني هوكنغ، فلم يسبق له "أبداً أن شارك في الرأي القائل إن التمييز العنصري خطأ من الناحية الأخلاقية. وفي رأيه، كان في جذره محاولة أمينة للتصدي لمشكلات عرقية كاسحة". وفي العام 1967، قامت مؤسسة جنوب إفريقية، وهي منظمة أعمال كان ينتمي إليها أوبنهايمر، باقتطاع إعلان في صفحة كاملة في جريدة وفيه تتوسل إلى أبناء جنوب إفريقية بأن يتوقفوا عن الاعتذار عن التمييز العنصري وبدلاً من ذلك أن "يحلوا محله نبرة من توكيد الذات الواثقة التي روجت إعلان فرص التمييز العنصري، (التوكيد من الأصل).

وحين تقاعد أوبنهايمر في العام 1982 قال خلفه، غافن ريللي، إنه مثله مثل أوبنهايمر لم يفضل مبدأ "رجل واحد، صوت واحد" لأن ذلك "سيكون ببساطة صيغة للفوضى المطلقة في هذه النقطة من الزمان في تاريخنا".[76] لقد ساند فرْضَ الحالات الشريرة القاسية من الطوارئ بوصفها "ضرورية" من نظام حكم التمييز العنصري في محاولاته للقضاء على الانتفاضة الشعبية.[77]

ومع تقدم الثمانينيات من 1980، وبعد أن تبين أن طرق الاضطهاد القديمة كانت تفشل، ناقش مديرو الشركة الأنجلو أمريكية بشكل خاص خوفهم من أن الشركة سوف "تذكر بوصفها آي. جي. فاربن التمييز العنصري،" وهذه إشارة إلى الشركة الألمانية التي استخدمت عمالة مستعبدة في أثناء الرايخ الثالث وإلى الدور الذي لعبته شركات الأعمال الألمانية في تثبيت النازيين.[78] واليوم، بعد أن نقلت الشركة الأنجلو أمريكية قاعدة حصتها إلى لندن، لم تكن أثرى منها من قبل أبداً. وفي تشرين الأول/أكتوبر من العام 2005، أعلنت الشركة أن حملة أسهمها سوف يتسلمون أرباحاً تصل إلى بليون دولار.[79]

شركات التعدين في جنوب إفريقية استقبلت الديمقراطية وحيّتها بطرد نصف قوة العمل فيها، وكثيرون من الرجال مصابون بأمراض مثل أمراض الرئة الناتجة عن استنشاق غبار السيليكا، ومرض السل، نتيجة الظروف الحارة، المملوءة بالسيليكا، والغبار وغير الصحية في مناجم الذهب. والسعداء هم الذين قد تلقوا

تعويضاً مالياً ضئيلاً. وفي معظم الحالات، تناقصت قدرتهم على المشي وعلى التنفس بسرعة حتى الدرجة التي بدؤوا معها يختنقون. ومعظمهم لا يستطيعون أن يوفروا لأنفسهم خزان أوكسجين ويموتون في الأربعينيات من أعمارهم. وكثيرة هي العائلات التي تكون أحوالها أفقر من أن تدفع تكاليف الدفن.

ولم توفر الشركات أبداً أي بحث وضع عن صحة رجال التعدين، هذا إذا تم القيام بمثل هذا البحث مطلقاً. ولم تجد دراسة أجريت في العام 1997 وضعها الأستاذ الدكتور نيل وايت من جامعة كيب تاون أي انخفاض مهم في مستويات الغبار في مناجم تعدين الذهب في غضون خمسين عاماً، ووجد أن وباء مرض استنشاق السيليكا لا نظير له في أي مكان في العالم.[80]

ويقدر ريتشارد سبور، وهو المحامي الذي قاد الكفاح ضد الشركات من أجل التعويضات، أن خمسمائة ألف رجل من رجال تعدين الذهب أهملوا وتركوا معدمين جداً بعد إصابتهم بمرض استنشاق السيليكا.[81] وقد كتب يقول: "كانت بيوتات التعدين تعرف معرفة كاملة جيدة أن مناجمها كانت تقتل العاملين وتشوههم بمعدل صناعي".

[وهذا] تطلب أن تنتزع إنسانية الناس السود لكي يكون بالإمكان أن يقتلوا وأن يشوهوا من دون إثارة السخط. والإيديولوجيات العنصرية التي كان يجري التحريض عليها وكانت صناعة التعدين تعطيها انتشاراً واسعاً هي التي ساعدت على الوصول إلى هذه النتائج. وتطلبت كذلك، أن تقوم الصناعة، بالتعاون مع دولة التمييز العنصري، بابتكار نظام قانوني من دون تكلفة أو عواقب قانونية... من شأنه أن ينعم بالحصانة المدنية على أرباب العمل.[82]

في السنوات الأولى من الديمقراطية، حين كان الحديث مازال جارياً عن التأميم وعن الوعود الأخرى في وثيقة الحرية، أضيفت أسماء "شركاء" التمكين*

* التمكين في علم الإدارة يشير إلى المشاركة القيادية أو الإدارية التي تمنح للعمال في مؤسسة. أما في علم الاجتماع فتشير إلى أعضاء الجماعات التي استثنتها عمليات التمييز الاجتماعي من المشاركة في اتخاذ القرارات، من خلال التمييز على أساس لعنصر، والعرق، والدين، والجنس. مثل تمكين المرأة، مثلاً. ولهذ التعبير معاني أخرى. (المترجم)

من السود إلى مجالس المديرين في شركات التعدين. ولم تكن وظيفتهم مجرد أن يدردشوا مع الحكومة السوداء الجديدة، بل أن يقنّعوا أيضاً نظام الحصانة الذي تمتعون به. فالموت من مرض مهني، يصنف اليوم، في جنوب إفريقية بأنه موت "طبيعي" – خلافاً لبريطانيا، التي يتم فيها تحقيق رسمي في الوفيات ويتقرر بموجب التحقيق على من يلقى اللوم، ثم يتبع ذلك دفع التعويض. ولم تظهر الحكومة اهتماماً حقيقياً في العدالة لرجال التعدين، وكأن في الأمر إحراجاً.

وكتب سبور يقول: "وعلى الرغم من أن آلاف العمال يموتون في كل عام نتيجة مباشرة لتعرضهم إلى مستويات شديدة جداً من الغبار في المناجم، فلم يجر سابقاً أي تحقيق رسمي في أي حالة من هذه الوفيات، ولم يجر أي سؤال رسمي مطلقاً عن سبب أي وفاة من هذه الوفيات، ولم يلاحق قضائياً أي رب عمل مطلقاً من أجل تعريض عماله إلى كميات مؤذية من الغبار في مكان العمل. وهذه الظروف تجعل من دستورنا مهزلة".[83]

ولهذه القصة ملحق مشؤوم. ففي العام 2002، صار القانون التشريعي للموارد المعدنية والبترولية قانوناً نافذاً، وأعطى الحكومة السلطة لمنح حقوق التعدين بغض النظر عن الحقوق في الأرض. وهذا يعني أن شركات التعدين لم تبق بحاجة إلى صرف مبالغ مالية ضخمة للحصول على حقوق تعدينية جديدة. فطالما وافق وزير صديق للأعمال، فإن الشركات تستطيع أن تعدن في أي مكان مجانياً من دون مقابل، وهذا ما يجعل كل جنوب إفريقية فعلياً "متاحة لأي شخص ليأخذها" من رجال الأعمال أنفسهم الذين طردوا الشعب من الأرض قبل قرن من الزمان.[84]

وتحولت قطاعات من جنوب إفريقية إلى المعادل لمفاعل تشيرنوبيل*. ففي الكيب الشمالي تؤدي نفايات الأسبيستوس المهملة من شركات التعدين – وهي

* يشير إلى الكارثة التي وقعت في عام 1986 في مصنع توليد الطاقة في المفاعل الذري في تشيرنوبل في أوكرانيا. وتعتبر أسوأ حادثة في تاريخ الطاقة النووية. وقد امتد الغبار المتساقط المشع إلى غرب الإتحاد السوفيتي، وغرب شرق أوروبة والدول الاسكندنافية والجزر البريطانية وشمال أمريكا. وتلوثت مساحات شاسعة من بيلاروسيا، وأوكرانيا، وروسيا، وتم ترحيل مئات آلاف الناس. ومات كثيرون.

شركات جينكور، وجيفكو، وشركة الكيب البريطانية المتعددة الجنسيات، شركة عامة محدودة – إلى تسميم الهواء، والماء والطعام لعدد لا يحصى من الناس، وليس أقلهم الرجال الذين سبق لهم أن عملوا في مناجم الأسبيستوس. والمثال النموذجي لهذا الوضع، هو وجود مزبلة لنفايات الأسبيستوس تشرف على قرية بالقرب من بوستمازبيرغ، وهناك تقوم الرياح السائدة بتوصيل المرض. إن خيطاً مجهرياً واحداً يستطيع أن يسبب التهاب الطبقة المتوسطة، وهو سرطان يهاجم بطانة الرئتين، أو الأجزاء الأخرى من الجسم، ويقتل قتلاً مؤلماً جداً. والأطفال على وجه الخصوص هم المعرضون لهذا المرض. ويمكن للمرض أن يستغرق حتى ثلاثين عاماً ليكشف عن نفسه، ولذلك فإن آثار المزابل "غير المستصلحة" مثل المزبلة القريبة من بوستمازبيرغ سوف يشعر بها الناس إلى أجل غير محدد.

في العام 2002، وافقت شركة الكيب، شركة عامة محدودة، بعد أن أخذت إلى المحكمة في لندن، على أن تدفع ما مجموعه أكثر من 7 ملايين جنيه إسترليني موزعة على سبعة آلاف ضحية على مدة عشر سنوات. ومنذ ذلك الوقت خرقت الشركة الاتفاق، متذرعة بالمصاعب المالية، ولم يتسلم معظم الضحايا أي شيء. وزيادة على ذلك، قامت حكومة جنوب إفريقية بالتنازل عن كل الادعاءات المرفوعة ضد شركة الكيب التي تطلب منها تنظيف البيئة وتنظيمها. وفي العام 2003، وافقت شركتا جينكو وجيفكو على تسوية، وفي الوقت الذي وعدت فيه الشركتان أن تسهما في صندوق حكومي للتنظيف والتنظيم، فإنهما كسبتا إيضاً تنازلاً عن كل ادعاءات أخرى تخص إزالة مزابل الأسبيستوس وتنظيف البيئة وتنظيمها.[85]

وما من شركة واحدة عرضت تقديم تعويضات: لا في التعدين، ولا في أي صناعة أخرى. وقد اقترحت مجموعة أعمال أفريكانية، وهي تمثل أمام هيئة الحقيقة والمصالحة، إنشاء صندوق، وكان هذا الاقتراح هو العرض العملي الوحيد من "القطاع الخاص" في جنوب إفريقية لتصحيح أخطاء الماضي. وأما الاقتراحات الأخرى فكانت حياتها قصيرة. وقد اقترح الأستاذ الدكتور سامبل تيريبلانش، وهو اقتصادي، أن تفرض ضريبة على الثروة من شأنها أن "ترفع" الأكثرية التي جعلها

التمييز العنصري فقيرة. وقال إن الحاجة كانت تدعو إلى ضريبة متواضعة من 0.5 بالمائة فقط على الدخول التي تزيد عن مليوني راند. وقد وصف هذا في الصحف بأنه " موضع جدل" ولم يسمع عنه ثانية.[86]

وقد قال وزير المالية تريفور مانويل: مهما كان من أمر، فإن كفاح التحرير لم يكن من أجل المال، ولم يكن التعويض ضرورياً لأن سياسات الحكومة "تنتشل" الفقراء. ولاحظ الوزير أن بعض أولئك الذين مثلوا أمام هيئة الحقيقة والمصالحة وطالبوا بالتعويض كانوا "متنافسين على الأوسكار".[87]

إن معظم الناس الذين بثوا أحزانهم أمام الهيئة لم يطالبوا بشيء غير العدالة. بل إن قلة منهم لم تطلب أكثر من شاهد قبر أو كرسي متحرك. وقد وجهت الهيئة إلى أن عشرين ألف ضحية تقريباً يجب أن تستلم كل ضحية منها مبلغاً وحيداً قيمته 30.000 راند، وهو ما يعادل 2.700 جنيه إسترليني. وبذلك التوجيه، أغلق النظر في الجرائم الملحمية، وحرم من العدالة ملايين من أبناء جنوب إفريقية. ورجال الأعمال، مثلهم مثل القضاة الذين طبقوا قوانين التمييز العنصري، لم يتقدم رجل أعمال واحد متعدد البلايين بطلب العفو، وهو بلا أدنى ريب واثق من أن مثل ذلك الطلب لن يكون مطلوباً. لقد كانوا على حق.

ومع ذلك، فإن مجموعة من ضحايا التمييز العنصري ترفع دعاوى في محكمة أمريكية ضد الشركات التي يقولون إنها أعانت وحرضت على خروق فاضحة لحقوق الإنسان في جنوب إفريقية متحدية بذلك العقوبات الصادرة من الأمم المتحدة في ثمانينيات 1980. وهؤلاء الضحايا يقاضون الشركات بموجب قانون برلماني أمريكي عمره 200 عام عن الاساءة الشخصية للأجانب، وهو قانون يسمح للأجانب في رفع دعاوى حقوق الإنسان أمام المحاكم الأمريكية. وما هو مثير للدهشة في هذه القضية هو أن حكومة جنوب إفريقية تساند الشركات مساندة مذهلة ضد الضحايا.

في العام 2003، طلب الرئيس مبيكي ووزيره للعدل بنيويل ماندونا، من المحكمة أن تسقط الدعوى على أساس أنها سوف تعوق "الاستثمار الأجنبي الذي

تدعو إليه الحاجة إلى حد كبير وسوف تؤخر إنجاز غايات الحكومة. وفي الحقيقة، يمكن أن يكون للمقاضاة أثر مزعزع للاستقرار في اقتصاد إفريقية الجنوبية لأن الاستثمار ليس محركاً للنمو فقط، بل للتوظيف أيضاً".[88] وقد رد الاقتصادي الرئيسي السابق في البنك الدولي، جوزيف ستيغليتز، نيابة عن رافعي الدعوى بأن هذه المحاجّة "لا أساس لها" لأن "أولئك الذين ساعدوا في دعم ذلك النظام، والذين أسهموا في الإساءات إلى حقوق الإنسان، يجب أن يقفوا للمساءلة... وإذا كان لذلك من أثر على جنوب إفريقية، فإنه سوف يسهم في نموها وتنميتها".[89]

في وقت كتابة هذا النص، كانت الدعوى مستمرة في إجراءاتها، وقد صارت هجمات الحكومة على رافعي الدعوة هجمات معادية وحارقة. وقد قال مسؤول كبير في مكتب مبيكي، هو فرانك تشيكين، وهو رجل دين ورجل تحرير سابق: "لقد رأيت ضحايا [التمييز العنصري] وهم يُنَظَّمون في جماعات مصالح وهي جماعات تجعلهم ضحايا دائمين. وهؤلاء الضحايا لن يتوقفوا عن أن يكونوا ضحايا لأنهم أي [(جماعات المصالح)] يحتاجون إلى ضحايا ليحسنوا قضيتهم ويرتقوا بها. أنا أعتقد أنه عمل يجردهم من الصفات الإنسانية".[90]

وكأنما ذلك لم يكن كافياً، فقام نيلسون مانديللا نفسه بتوبيخ أولئك الساعين إلى العدالة من أهوال التمييز العنصري، وذلك بعد أن صار مانديللا الآن المدافع عن "حقوق" رأس المال الدولي. ففي مناسبة اجتماعية حضرها قادة رجال الأعمال ورعاها أثرى أثرياء جنوب إفريقية، وهو نيكي أوبنهايمر (هارو، وأكسفورد والأنجلو أمريكية)، أعطى مانديللا اسمه لمؤسسة جديدة هي "مانديللا رودس)، واستخدم المناسبة ليسخر من قضية المحكمة في نيويورك بوصفها "تدخل خارجي". وقال، وقد خلا كلامه من المفارقة الساخرة المتوقعة، عن أجشع سلاب استعماري لإفريقية: "إنني متأكد من أن سيسيل جون رودس كان سيعطي موافقته لهذا الجهد من أجل أن يجعل اقتصاد جنوب إفريقية في مطالع القرن الحادي والعشرين مناسباً ولائقاً لعصره".[91]

وحين كانت هيئة الحقيقة والمصالحة تقترب من جلسات سماعها الأخيرة ناشد رئيس الأساقفة ديزموند توتو رجال الأعمال، والصحافيين، والآخرين. وقال: "من

فضلكم، أرجوكم أن تغتنموا هذه الفرصة الأخيرة لتخلّصوا أنفسكم من عبء الماضي".[92] ولم يرد عليه أحد. إن توتو وزملاءه أعضاء الهيئة قد ركزوا على المنفذّين – أي، على أولئك الذين تلقوا الأوامر بدلاً من الذين أصدروا الأوامر واستفادوا منها – وتوتو وزملاؤه بتركيزهم بهذا قد عفوا عن السكان البيض في جنوب إفريقية، المستفيدين غير المنازعين من التمييز العنصري. إن استثناءهم سمح لهم بأن يستشعروا الرعب من اعترافات القتلة المأجورين ومقترفي أعمال التعذيب وأن يشعروا أن النظام الذي ساندوه قد خانهم وانتهك حرماتهم، لا بل سمح لهم أن يعرضوا أنفسهم بصفتهم ضحايا.

إن هيئة الحقيقة والمصالحة لم يقصد منها أبداً أن تأتي بالمصالحة وبالعدالة نفسها. وذلك "العمل غير المنتهي" هو مسؤولية الدولة، وهي المسؤولية التي أعطت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي كل إشارة على التخلي عنها لمصلحة "شركائها" الجدد في الأعمال. وبعد أن ووجهت الهيئة بالعداوة الرسمية والمؤسسية، عملت الهيئة بجد وبشجاعة في الغالب تحت ضغط بالغ الشدة. ونظراً إلى أنها حرمت من التمويل المناسب، فلم تستطيع أن تنشر إلا اثني عشر محققاً، ومع ذلك فإن إنجازها البارز هو أن تكون قد كشفت علانية التمييز العنصري وأسقطت عدالته وكذّبته، وذلك لكيلا يستطيع أحد بعد الآن أن يقول إنه "لم يكن يعرف". وكان هذا بسبب استعراض قام به أناس شجعان صدمتهم الأعمال الوحشية التي قام بها النظام، وبرغم ذلك كانوا مستعدين للكلام بحرية وبلا خوف، وكان بفضل ديزموند توتو الدؤوب الذي لا يكل مع زملائه أعضاء الهيئة والمحققين الأقوياء في الحفر على القضايا، مثل جان إيك كيلنغبيرغ وبيبرز بيغو، وبفضل خلاصة جديرة بالملاحظة لجلسات الاستماع سميت تقريراً خاصاً وكانت تذيعها مؤسسة بث جنوب إفريقية على الهواء في كل يوم أحد ليلاً بين عامي 1995 و1997.

وكان مقدم التقرير الخاص صحافياً فظاً، فصيحاً، هو ماكس ديو بريز، ولسانه الوطني هو الذي أنتج كلمة "التمييز العنصري" وهذا الصحافي رفض أن يسمح لمشاهديه البيض أن يهربوا من التواطؤ، وكان يشير إليهم بوضوح مباشرة

بكلمة "أنتم". وحين أدلى هو نفسه بشهادته أمام الهيئة، كان قاسياً مع زملائه. وقال: "لو أن وسائل إعلام المجرى الفكري السائد كانت قد عكست وتابعت اعترافات زمر [الموت] هذه، والإفشاءات التي باحوا بها لكانت الحكومة قد أُجبرت على أن توقف التعذيب، وأعمال القتل والاغتيالات، ولكانت أنقذت الكثير، الكثير من حياة الناس".[93] إن الأصوات التي حاولت أن تستخرج معنى أخلاقياً وسياسياً من جريمة التمييز العنصري، لأصوات من أمثال صوت ماكس دو بريز، وتشارتي كونداييل، وديزموند توتو، وبولا ماكبرايد وكثيرين آخرين كان عليها أن تتنافس مع قوى تواقة إلى أن تروج لنظام كوني "متصالح" في جنوب إفريقية. وكانت النتيجة لذلك حقيقة منقوصة متضائلة.

في جنوب إفريقية "الجديدة"، كما في القديمة، تحتل علاقة التعايش مع بريطانيا مكاناً خاصاً. فقد كان رأس المال البريطاني هو الذي "افتتح" جنوب إفريقية وكان الرائد في القرن التاسع عشر ووضع الأساس للتقسيم العنصري وللسيادة البيضاء. ومع فرض التمييز العنصري قانونياً في الخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960 ومع سحق المقاومة السوداء بالتدريج، ارتفع الاستثمار البريطاني بالتوافق مع ذلك، إلى أن تضاعف بين عامي 1956 و1970.[94]

في شاربفيل في العام 1960، استخدمت عربتان مصفحتان وردّتهما بريطانيا من نوع سراسن مزودتان بالرشاشات ضد المحتجين احتجاجاً سلمياً. قتل تسعة وستون شخصاً وجرح المئات. وبعد توقف قصير، تدفق الاستثمار الأجنبي إلى جنوب إفريقية، ومعه الشركات البريطانية التي كانت تمثل 61 بالمائة من الاستثمار. وكانت الأرباح ضخمة. ففي ثمانية أعوام بعد شاربفيل كان العائد على الاستثمارات 12 بالمائة، وهو عائد أكبر بنسبة الثلث من كل أنحاء بقية العالم.[95] ومع نهاية الثمانينيات من 1980، وبالرغم من حظر الأمم المتحدة، مثل الاستثمار البريطاني في جنوب إفريقية كمية تصل إلى 50 بالمائة من كل الاستثمار الأجنبي في تلك البلاد.[96]

ومع مجيء الديمقراطية، كانت الأعمال كالمعتاد. وفي الأسبوع الذي افتتحت فيه هيئة الحقيقة والمصالحة جلسات استماعها عن تعاون قطاع الأعمال مع التمييز

العنصري، قدمت تسع شركات أجنبية مناقصات من أجل عقد تزوِّد بموجبه جنوب إفريقية بأسلحة وبمعدات عسكرية تصل قيمها إلى 3 بلايين جنيه إسترليني. وكانت الطلبات من أجل الحصول على الطائرات المقاتلة، والطائرات العمودية، والدبابات القتالية، والسفن والغواصات. وليس لجنوب إفريقية أعداء خارجيون، ولكن لديها، على كل حال، الفقر الذي يوصف بأنه "يائس"، مع وجود أكثر من خمسة ملايين طفل جياع، ونظام صحي عاجز عن التصدي للمرض الوبائي، مثل الإيدز والسل.[97]

كسبت صناعة الأسلحة البريطانية أفضل خيار لاثنتي عشرة من طائرات الهوك، ووافقت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي أن تدفع من أجلها 17 مليون جنيه إسترليني عن كل طائرة – وهذا الثمن يعادل ضعف الثمن الذي عرضته شركة صناعة طائرات إيطالية وهو "إلى درجة كبيرة أغلى خيار"، وفق ما جاء في تقرير برلماني.[98] وانسجاماً مع سياسة حكومة طوني بلير في مبيعات الأسلحة إلى "العالم الثالث" عرضت هذه الحكومة على المؤتمر الوطني الإفريقي خطة مارشال "لجنوب إفريقية" من أجل "التعويض" عن التكلفة الباهظة للطائرات، مع موافقة أنظمة بريتش أيروسبيس على "حزمة من المشاركة الصناعية". وضم هذا العرض مخططاً من 270 مليون جنيه إسترليني لإقامة مصنع قطع للطاقة، ومصنع تيتانيوم بقيمة 93 مليون جنيه إسترليني، و"منطقة صناعية" بقيمة 16 مليون جنيه. وإضافة إلى ذلك، فإن أنظمة بريتش إيروسبيس والشركة السويدية المتعاونة معها، ساب، وعدتا بأن تقوما بتوليد ما قيمته 1.3 بليون جنيه إسترليني من الاستثمار الأجنبي.

في كانون الثاني/يناير من العام 1999، طار بلير إلى جنوب إفريقية، وقد قدم ثناء كريهاً لنيلسون مانديللا وقال للناس في مدينة عزل عنصري فقيرة: "إن العالم كله يريد لكم أن تنجحوا".[99] أما الغرض غير المعلن لزيارته فقد كان هو الضغط على حكومة جنوب إفريقية لتشتري طائرات الهوك بسعرها المضخم ولتقبل "الحزمة". وقد نجح. وقد حيا الصفقة وزير التجارة والصناعة من الحزب الوطني الإفريقي آنئذ، وهو أليك إيروين، "بوصفها بياناً عملياً واضحاً على

قدرة... جنوب إفريقية على تحسين المنافع الاقتصادية من مشتريات الدولة من السلع والخدمات".[100]

مخطط مصنع الطاقة بقيمة 270 مليون جنيه إسترليني لم يحدث أبداً ومصنع التيتانيوم بقيمة 93 مليون جنيه إسترليني من غير المرجح أن يحدث. ويقول تقرير برلماني: "من دون هذين المشروعين، لا تكون بريتش إيروسبيس قد ملكت عملياً أي حزمة مشاركة صناعية. ومبلغ 1.3 بليون دولار من الاستثمار الأجنبي مازال ينبغي "أن يولد"، وذلك على الرغم من أن الشركة السويدية، سويدش ماتش، قد اشترت حصة في شركتي تبغ في جنوب إفريقية، ومنهما شركة تصنع تبغاً يعلك اسمه "تاكسي"، تدور حوله اهتمامات صحية مقلقة.[101]

لقد استُغفِلت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي وهي اليوم غارقة في فضيحة من النوع الذي يرافق تقريباً كل صفقة أسلحة بريطانية كبيرة. دفعت رشاً بقيمة تزيد عن 160 مليون جنيه إسترليني، وذلك وفق ما كشفته الغارديان وأكدته وزيرة بلير للتجارة آنئذ، باترشيا هوويت. وتعرف هذه الرشا باسم "عمولات" السمسرة، وهي قانونية بموجب القانون البريطاني. وبعد أن اتهم جو موديس، وزير الدفاع في جنوب إفريقية، بأنه قبض رشوة بقيمة 500.000 جنيه إسترليني أعلن أنه سيتقاعد بسبب سوء حالته الصحية.[102]

وكان المصرف الذي خصص لتمويل "الحزمة" البريطانية هو بنك باركليز، وهو المصرف الذي انتفع انتفاعاً مشهوراً من التمييز العنصري (ومن تجارة الرقيق). وفي وقت كتابة هذا النص، يقوم برلمان جنوب إفريقية بفحص البنود المتعلقة بالإهمال والتقصير في اتفاقية قرض بنك باركليز، والتي تتنازل على ما يظهر عن السيطرة على الكثير من حياة البلاد الاقتصادية للبنك، وللحكومة البريطانية ولصندوق النقد الدولي.

كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ قد يكمن الجواب في كل زيارات الحج تلك التي يقوم بها المؤتمر الوطني الإفريقي إلى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في واشنطون، وفي كل تلك "العروض" في دافوس، وفي كل تلك التزلفات لدى الثمانية

الكبار (جي -8)، وفي كل تلك الجولات المدفوعة التكلفة من مشاريع "المبادرة المالية الخاصة" في بريطانيا، وفي كل أولئك الخبراء والمستشارين الأجانب القادمين والذاهبين، وفي كل تلك التقارير الأكاديمية الزائفة المكتوبة برطانتها "الليبرالية الجديدة" وفي كل تلك الأجواء التي "يزدهر الرابحون" في ظلها.

لقد أوضحت بريطانيا لحكومة المؤتمر الوطني الإفريقي كيف تتعامل مع فقرائها، وذلك من خلال إدارة بريطانية هي إدارة التنمية الدولية، وهو اسم لطيف لشيء بغيض. ويتطلب القانون البريطاني من إدارة التنمية الدولية ألا تصرف الأموال إلاّ بهدف تخفيض الفقر. وهذه الإدارة تكسر القانون باستمرار، وذلك لأنها، في الحقيقة، وكالة خصخصة. ففي العام 2004، أقرت الوزيرة هيلاري بن، بإعطاء 6.3 مليون جنيه إسترليني إلى معهد آدم سميث، وهو مجموعة مصالح من جناح اليمين المتطرف، في مقابل مقترحات من أجل "إصلاح" "القطاع الخاص" في جنوب إفريقية [103] إن إدارة التنمية الدولية تمول "مخطط ترويج الاستثمار البريطاني في جنوب إفريقية". وهذا يروج علاقات "أعمال إلى أعمال" بين الشركات البريطانية وشركات جنوب إفريقية، وهي علاقات لا شأن لها إلا قليلاً بتخفيض الفقر.[104]

لقد تعلمت السلطات المحلية والمنظمات غير الحكومية في جنوب إفريقية أنها من أجل أن تؤمن "العون" البريطاني، يجب عليها أن تبين عملياً تفضيلاً نحو القطاع الخاص. وهكذا، فإن مجلس مدينة جوهانيسبيرغ الذي يديره المؤتمر الوطني الإفريقي عيَّن "شريكيه في الأعمال"، وهما شركة نورثمبريان البريطانية للماء وشركة السويس الفرنسية، بأن تقوما بتركيب عدادات مياه مدفوعة القيمة مسبقاً في مدن العزل العنصري في أورنج فارم وفيري. والناس هناك فقراء جداً إلى الدرجة التي لا يستطيعون معها أن يتحملوا تكلفة الإمدادات المنتظمة من الماء، وهي تكلفة حلّقت عالياً منذ نهاية التمييز العنصري. وحين ركبت عدادات المياه المدفوعة القيمة مسبقاً في كوازولو– ناتال، فإن الفقراء جداً استمدوا المياه من الأنهار، وانتشرت الهيضة (الكوليرا) وأصابت بالعدوى مائة ألف نسمة وقتلت 260 نفساً.[105]

لدى عودة بيتر هين إلى جنوب إفريقية، حيث ولد وترعرع، وهو الذي كان وزيراً في حكومة بلير ومكافحاً سابقاً مناوئاً للتمييز العنصري، قال هين: "لقد كانت جنوب إفريقية في وقت سابق هي النظام الرجعي المنبوذ في إفريقية، أما الآن فهي النموذج الراديكالي التقدمي الذي [يتابع] قيادة ذات رؤية وسياسات اقتصادية حديثة".[106]

وبعد أن قال هين هذا بمدة قصيرة، كتب خمسة وثلاثون رجل أعمال أفريكانيون، وكانوا كلهم ضامنين لنظام حكم التمييز العنصري، رسالة مفتوحة في دعم سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي "السياسات الاقتصادية الحديثة". وفي الوقت نفسه، أعلن بيك بوتا، وهو وزير الخارجية العجوز صاحب أطول خدمة لنظام الحكم القديم، والذي سافر في العالم يدافع عن النظام العرقي وحروبه الوحشية الشنيعة وعن إرهابه ضد النشيطين من المؤتمر الوطني الإفريقي، أعلن عن أنه كان يلتحق بالمؤتمر الوطني الإفريقي. وقال: "أنا أعتقد أنني أستطيع أن أربط نفسي مع المبادئ الأساسية للمؤتمر الوطني الإفريقي [من مثل] حماية الملكية الشخصية".[107]

على جداري في لندن أعلق صورتي المفضلة من جنوب إفريقية. وهي دائماً تثير في النفس هزة حين رؤيتها، إنها صورة امرأة وحيدة تقف بين عربتين عسكريتين مدرعتين، من نوع يعرف باسم "هيبوس"، وهما تدرجان إلى داخل سوويتو. ذراعا المرأة مرفوعان، وقبضتاها مغلقتان، وجسدها النحيل يجتذب العدو ويتحداه معاً. إنه يوم أيار/مايو، في العام 1985، لقد بدأت الانتفاضة وهذه المرأة هي رمز شعبها.

لقد وصف لي المصور بول وينبيرغ كيف جثم في خندق حين غزا رتل من عربات هيبوس سوويتو. وقد رد الناس بالقتال بالحجارة، في مواجهة الرصاص المطاطي والذخيرة الحية. وقال لي: "هناك في الخندق إلى جانبي، كانت تلك المرأة الشبيهة بالطير، واستخرجت زجاجة من الجن، وأخذت رشفة، ثم ذهبت فوق القمة ومشت مباشرة إلى الرتل المتحرك من العربات. لقد كان هذا العمل أمراً من أشجع الأشياء التي رأيتها".

حين عدت إلى جنوب إفريقية بعد غياب ثلاثين عاماً، اكتشفت أن الكثير من روح المقاومة هذه قد بقي على قيد الحياة. ففي صفوف الناس الذين قابلتهم في مناطق مدن العزل العنصري، تم التعبير عن تلك الروح من أولئك المبجلين والمصممين، الذين كانوا يشكلون جداراً من البشر حول بيت الأرملة المهددة بقطع كهربائها، وبرفض الناس للبيوت الحكومية التي تحط من كرامة الناس "بيوت برنامج إعادة الإعمار والتنمية" التي سميت "وجار الكلاب". وكان التعبير عنها من روز مخانجيلي وخمس وعشرين امرأة أخرى كن قد بنين بيوتهن الخاصة الحديثة بأيديهن. وقالت روز: "هذه البيوت حلمنا. في أول مرة سحبت فيها سيفون الماء لغسل المرحاض شعرت بالخوف!"

واليوم، يتم التعبير عن الروح في التظاهرات الجماهيرية النابضة التي تقوم بها "الحركات الاجتماعية" والمنظمات المتحالفة معها وهي من بين أكثر الحركات عدداً، وتطوراً وحراكية (دينامية) في العالم. إنهم منتدى مناوأة الخصخصة، ولجنة أزمة كهرباء سوويتو، ومشروع حقوق التعليم، وحركة شعب بلا أرض، والاحتفال بذكرى الخمسين لجنوب إفريقية، والتحالف ضد الفقر، وحملة عمل العلاج، ومركز المجتمع المدني، ومنتدى المواطنين المهتمين – إذا سمينا بعض هذه المنظمات. وعلى الرغم من أن بعضهم قد يزداد وينقص، فإن قيمتهم السياسية يمكن أن تقاس بالطريقة التي شكلوا بها علاقات مع حقوق الإنسان الدولية وحركة مناوأة الرأسمالية التي تعبر، مع اتحادات العمل المستقلة، عن القوة غير المتشكلة التي تسمى "الرأي العام".

إن ما تملكه جنوب إفريقية بوفرة هو قوة تسمى أوبونتو*، وهي الإنسانية التي لا تكون ساكنة أبداً، وقد بقيت على قيد الحياة برغم وحشية التصنيع والتمييز العنصري وبرغم رعب التمييز العنصري الاقتصادي المتجدد الآن. أوبونتو مفهوم ذكي من لغات نغوني** التي تقول إن إنسانية الشخص تظهر بالتعبير عنها من خلال التقمص والتضامن مع الآخرين: من خلال الجماعة والوقوف معاً. ويقول مثل يتداوله

---

*.Ubuntu

** Nguni مجموعة من لغات البانتو الجنوبية.

شعب الكوصا* "يكون الناس ناساً من خلال الناس الآخرين". وقد سمى ستيف بيكو هذه القوة "الطائفية السوداء الأصيلة".

وليس معنى هذا أن ننكر أنها روح مثالية وأنها تحمل معها مواطن الضعف المعتادة، التي يكون معظمها منتجاً للفقر، ولكن البرهان على مرونتها يبدو، لي، في كل مكان تقريباً في جنوب إفريقية. إن المؤتمر الوطني الإفريقي، في احتضانه لنظام جامد قد بخس العبقرية الخيالية في شعبه الخاص قدرها واستخف بقيمتها.

حين مشينا عبر لايمهيل، وهو المكان الذي قُذِف فيه "الناس المهملون"، ذكر لي كوسماس ديزموند "شيئاً ما أكبر إلى حد بعيد من مجرد البقاء على قيد الحياة ضد الاحتمالات المعاكسة". وقال: "الناس هنا بقوا على قيد الحياة بعد أحوال سيئة في التغييرات في المناخ، والاستعمار، والتمييز العنصري، وقد برزوا وهم يتحلون بجوهر من الإنسانية ومن المهارات في الحياة التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً. ومع ذلك، فإن النخبة في إفريقية الجنوبية، من البيض والسود، تفترض أن الناس هنا لا يعرفون شيئاً، وذلك لأنهم لا يكنون أي احترام لما هو إفريقي ولأنهم لا يملكون أي فهم لمسألة أننا نستطيع أن نتعلم الكثير جداً من الخبرة الإفريقية. إن النخبة تخلط بين المعرفة والحكمة. فالغرب يملك الكثير من المعرفة، وإفريقية تملك الكثير من الحكمة. وكل طرف يحتاج إلى الآخر، ومع ذلك فمن نحن من دون حكمة؟"

الكرم مذهل. لقد أخفقت في مقابلة أي جنوب إفريقي أسود حلم بالانتقام: باضطهاد البيض، مثلما سبق للبيض أن أضطهدوا السود. نعم، الجريمة مشكلة هائلة، وهذا لا يثير الدهشة، إذا أخذنا بالحسبان جرائم الدولة الكبيرة التي دمرت أجيالاً كاملة وذهبت من دون أن تنال العقاب، ومن دون الاعتذار عن أعمال النهب وجرائم الجشع. فخلف جدران أولئك البيض وخلف كلابهم، الذين لم يتوقعوا ولا هم استحقوا مثل هذا الانتقال بلا ألم من أعمال التمييز العنصري الوحشية، ما زال يجب عليهم حتى الآن أن يقدروا الفرصة الثانية التي أعطيت لهم.

---

* Xhosa وهي لغة نيلسون مانديللا.

إن الاستماع إلى الطلاب الشباب البيض الأطباء وهم يشتكون شكوى مريرة من التزامهم القانوني بقضاء عامين من العمل في مستوصف ريفي هو اختبار للتسامح. إن أطباء جنوب إفريقية كانوا متواطئين مع التمييز العنصري. أحد الأطباء الذين رأوا ستيف بيكو وقد أصيب إصابة مميتة ولم يفعلوا شيئاً، لم يمنع هذا الطبيب من العمل إلا بعد سنوات من فعلته فقط، ثم سمح له بالعودة إلى ممارسة عمله. والاختصاصيون بعلم الأمراض الذين قدموا التقارير التي سمحت للمحققين بأسباب الوفيات بألا يكشتفوا شيئاً عن الناس الذين عُذبوا حتى الموت، أولئك الاختصاصيون استمروا في تلقي رواتب تقاعدهم.

كان مبويي نغويندا في السادسة والثلاثين من عمره حين تسلم منصب الأمين العام للاتحاد الوطني لعمال المعادن لجنوب إفريقية. ومثله مثل الكثيرين من قادة اتحاد العمال السود، ولد في الكيب الشرقية المفتقرة. وقد نال دراسة وتلمذة في مهنة البرادة والخراطة في فولكسواجن، والتحق باتحاد العمال وبالمؤتمر الوطني الإفريقي وبالحزب الشيوعي لجنوب إفريقية. وهو مقاتل في المقاومة في الثمانينيات من 1980، وقد سُجن وعُذب. وحين تقابلنا، أحببته فوراً. وعلقت على سمعته بأنه "مِسْعَرُ فتنة" وبأنه "لابس أنيق حريص".

وقال وهو يضحك: "حسناً، أنا ابن مدينة، وأحسب أن عليك أن تبدو مناسباً. أنا مسعر فتنة، بالتأكيد، من أجل أن يجري تقسيم الثروة والتعليم في هذه البلاد بيننا جميعاً. ما هي الحرية إذا لم نمتلك ذلك؟ هذه ألفاظ حمقاء جداً. ما أريده، وما تريده أغلبية الشعب، هو أن تنفتح بوابات لسجنهم الاقتصادي. الحياة قاسية، ولكن لا ينبغي أن تكون قاسية إلى هذا الحد. لقد قاتلنا ولقد تحملنا، والآن لنا حقنا في الكرامة".

"وماذا لو أن الحكومة لم تأت بالكرامة؟"

"أولاً، يجب أن نقنع الناس الموجودين في السلطة بأنهم على خطأ: أي، أن تولي بنية اقتصادية تستبعد الأغلبية وتكافىء أقلية هو أمر خطأ. ولذلك سنستمر في

التحدث والحوار والمناقشة، وإذا فشل ذلك، فسوف ننتفض: سلمياً ولكن بقوة شديدة لا يمكن معها إيقافنا. وفي الواقع، لاشيء يستطيع إيقافنا الآن".

وفي 10 آذار/مارس في العام 1999، مات مبويي نغويندا بعد مرض مفاجيء. كان في التاسعة والثلاثين من عمره.

في جنوب غرب جوهانيسبيرغ، ترتفع أكوام الخبَث المعدني مثل النصب التذكارية للمايا. وبيوت رجال التعدين البيض أنيقة، وحدائقهم مشذبة، وخدمهم السود يأتون ويذهبون. ومجمعات رجال التعدين السود تبشه السجون الفكتورية المتأخرة، التي كان يتقاسم فيها عشرون رجلاً حجرة واحدة وصنبوراً واحداً. وفي مدخل المنجم في كارلتونفيل، كان فرانزي باليني، ممثل اتحاد العمال الوطني لعمال المناجم، قد بدأ يومه بالتجول على الموقع ليكشف كم رجلاً كان قد قتل أو أصيب في الليلة. وقال: "في الليلة الماضية، لم تقع حوادث مميتة. في يوم الجمعة قتل اثنان. كان ذلك نتيجة الإهمال. لقد سمح للعمل بالاستمرار في طبقة معدنية مختلة في الأعلى، وهذا سبب سقوط صخرة. تريد الشركة من كل رجل أن ينتج تسعين طناً أخرى. فإذا لم ننتج نفقد الوظائف، وإذا أنتجنا نفقد الحياة".

"هل جنوب إفريقية حرة حتى الآن؟"

"نحن نصف أحرار".

ورن الهاتف، وتحدث إلى مسؤول في اتحاد العمال عن رجل تعدين مصاب. هز رأسه، وأنهى المكالمة ومال إلى الأمام وقال: "في الواقع ربع أحرار".

من أعلى نقطة في مدينة العزل العنصري أليكساندرا، كنت أستطيع أن أرى القمم الزجاجية لمدينة ساندتون، وهي أثرى بلدية تسوق وسكن في جوهانيسبيرغ. و"أليكس"، أليكساندرا، توفر لساندتون الخدم، والحدائقيين، والسائقين، والحراس الأمنيين. في أسفل الطريق كان يوجد مستوصف سوء التغذية لمخطط إطعام الأطفال الأفارقة. وليس معروفاً عدد الأطفال المصابين بسوء التغذية ويعيشون

في أليكس لأن عدد السكان يتحول من نصف مليون إلى ثمانمائة ألف نسمة، وهو يعتمد على زمان ومكان العمل.

وقال مزوانيل ماييكيسو: "هناك أناس في ساندتون لا يعرفون أبداً إن كانت أليكس موجودة، على الرغم من أنها تبعد مسافة ميل أو ميلين فقط. إنهم يظنون أن أليكساندرا مكان في الشرق الأوسط في مكان ما".

مزوانيل كان قائد منظمة مدنية قومية، قاتلت التمييز العنصري وهي جزء من الجبهة الديمقراطية الموحدة. وقد درس منذ ذلك الوقت في الولايات المتحدة. وقد سألته عما تعلمه من وجوده في أمريكا.

"تعلمت أننا في جنوب إفريقية نموذج لتمييز عنصري عولمي: وأعني، هنا تماماً – أليكس في مقابل ساندتون: الفقير جداً والثري جداً جنباً إلى جنب، ولكنهما في الواقع يفصل بينهما عالم. انظر إلى المدن الأمريكية. إنها مثل جوهانيسبيرغ الآن، وجوهانيسبيرغ تصير أكثر فأكثر مثلها. إن ديترويت تقريباً صورة مماثلة، وفيها الأغلبية السوداء مرتبطة مع الفقر وفي أحياء خاصة (غيتو)، والبيض في جبالهم الزجاجية والضواحي ذات البوابات، وقلة من أثرياء السود يسمح لهم بالدخول إلى ملاعب الغولف. وهذا شكل من التمييز العنصري أفعل بكثير مما حلم به البوير. وخلف قوس قزح وشعارات المصالحة تم حشرنا في ضيق النظام الدولي الجديد".

في آب/أغسطس من العام 2001، أضرب أكثر من خمسة ملايين من العمال، والطلاب، والفقراء وملؤوا الشوارع في المدن الكبيرة لمدة يومين. ومنذ ذلك الوقت كان هناك انفجار من الانتفاضات المجتمعية في كل جنوب إفريقية، مع وجود أناس يشعلون بالمشاعل أكواخهم والمعسكرات على الأرض المغصوبة والمباني الحكومية المحلية. وفي العام 2005، شكلت اتحادات العمال في مؤتمر جنوب إفريقية حركة جديدة، قيل إنها استُلهِمت من الجبهة الديمقراطية المتحدة، التي قادت الانتفاضة ضد التمييز العنصري. ولكن اتحادات العمال مع ذلك كانت مترددة في أن تترك "حلفها" الرسمي مع حكومة مبيكي، وفي الوقت الذي يواجه

فيه قادتهم كلا الطريقين، فهم يمنعون بروز حزب لتحدي دولة الحزب الوحيد والأيديولوجية الوحيدة التي آلت إليها جنوب إفريقية. فإذا لم يكن هناك أي تحد، فإن خيبة الأمل سوف تنمو في واحد من أكثر سكان العالم تسيّساً.

وهذا لا يعني الإيحاء بأن الناس يخفقون في الاعتراف بإنجازات حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي، مثل الماء ووصل الكهرباء، ومِنَح دعم الأطفال وسن التشريعات المتنورة، مثل قانون خيار إنهاء الحمل، الذي جعل الإجهاض قانونياً وأنقذ آلاف الأرواح. ومنذ العام 1994، مع ازدهار حرية التعبير والاجتماع، تغيرت الافتراضات والمواقف المتكلسة. كل ذلك لا ينكر وهو موضع الإعجاب.

ولكن أعظم حرية أساسية، الحرية اللازمة للبقاء على قيد الحياة وللبقاء بقاء لائقاً، قد حُجِزت عن أغلبية مواطني جنوب إفريقية، الذين هم على وعي بأن المؤتمر الوطني الإفريقي لو كان قد استثمر فيهم وفي "الاقتصاد غير الرسمي" الذي يبقى معظمهم بفضله على قيد الحياة، لا غير، لكان المؤتمر استطاع أن يحول فعلياً حياة الملايين. كان يمكن أن تُشترى الأرض وتستصلح من أجل الزراعة على مستوى صغير على أيدي الذين جردوا من ملكيتهم، وأن تدار في الروح التعاونية للزراعة الإفريقية، وكان يمكن أن تبنى ملايين البيوت، ولو حدث ذلك لكانت الصحة الفضلى والتعليم الأفضل أموراً ممكنة. وكان يمكن لنظام ائتمان على مستوى صغير أن يفتح الطريق للسلع وللخدمات التي يُقتدر عليها للأغلبية. وما من شيء من هذا كان سيحتاج إلى استيراد تجهيزات أو مواد أولية، ولو حدث ذلك لكان الاستثمار سينشئ ملايين الوظائف. ومع تنامي رفاهية المجتمعات، كانت ستطور صناعاتها الخاصة بها وتطور اقتصاداً قومياً مستقلاً.

روجر روني واحد من أصرح قادة اتحاد العمال في جنوب إفريقية. وبصفته الأمين العام لاتحاد عمال البلديات الضخم في جنوب إفريقية، فقد شن حملة ضد عودة أعمال طرد المستأجرين التي كانت موجودة في عصر التمييز العنصري وضد تولي الشركات الأجنبية إمدادات الماء. وحين تقابلنا في فندقي في كيب تاون، قال لي: " في مكان الباب التالي كان بيتي. وكنت في السادسة من عمري حين نقلت

أسرتي بالقوة وأرسلت بعيداً إلى نهاية الطريق العام ن 2 إلى حي فقير مكتظ قذر بالقرب من المطار. وفي اللحظة التي ذهبنا فيها، كان يبنى سوق للتسوق".

"أي تعويض ستقبله؟"

"لا أريد من أحد أن يعتذر عن خطاياهم. أنا أريد مصالحة حقيقية، وهي إعادة توزيع الثروة من أولئك الذين انتفعوا تحت نظام التمييز العنصري إلى أولئك الذين عانوا منه. كلما تغير المزيد من الأشياء، بقيت على حالها. انظر إلى الطريقة التي تأتي بها الشرطة وكل آلة الدولة على نحو ثقيل على مناطق مدن العزل العنصري. لم ينس الناس أن التمييز العنصري وأن الاستغلال الرأسمالي كانا وجهين للعملة نفسها. وبسبب ولاء الناس للحكومة الديمقراطية، فقد يستغرق الاحساس بالاغتراب وبالخيانة ما يصل إلى عشر سنوات ليفهم ويتم استيعابه. ولكنه سيفهم".

وتبقى ذاكرة ستيف بيكو هي المحك. ففي الوقت الذي أكتب فيه هذا النص، يكون قد مر ثمانية وعشرون عاماً منذ أن مات، بعد أن سحب ودفع مئات الأميال، عارياً وفي غيبوبة، من زنزانة شرطة في بورت إليزابيث إلى آخرى في بريتوريا. موته كشف حظر النفط والأسلحة ضد نظام حكم التمييز العنصري وحشد الشباب في كل أنحاء العالم. على جدار في مدينة العزل العنصري تيمبيسا، وبحروف كبيرة، كتبت كلماته التي تبعث الرعدة في العمود الفقري: "أنت إما أن تكون حياً وفخوراً أو أن تكون ميتاً، وطريقة موتك هي نفسها تستطيع أن تكون أمراً مسيِّساً. وهكذا فإذا كنت تستطيع قهر الخوف من الموت، والذي هو خوف غير عقلاني، فإنك على طريقك".[108]

حين قرأت للمرة الثانية مقابلة بيكو مع دونالد وودز في العام 1976 – قبل ثمانية عشر عاماً من مجيء الحكومة السوداء المنتخبة – كنت مندهشاً من بصيرته. قال فيها: "بالنسبة إلى الرجل الأبيض [رجل واحد، صوت واحد] سيكون أعظم حل! إنه سيشجع التنافس بين السود، أنت ترى، وسوف يستأصل

الأساس المهم للنقد من الخارج لنظام الحكم الحاضر. ولكنه لن يغير وضع الاضطهاد الاقتصادي للسود. ذلك الاضطهاد سيبقى على حاله". (التوكيد في الأصل)[109].

عند أسفل الجبل الطاولة في كيب تاون يقف نصب تذكاري لسيسيل رودس. وهو مغطى بالكتابات وبذراق نوارس البحر، وإنه لأمر مثير للدهشة أن ذلك النصب مازال هناك. فقد كان رودس، قبل مدة طويلة من إعلان البوير السياسة الرسمية العرقية، قد زرع جذور شكل من أشكال التمييز العنصري أكثر بقاء. وكان قد صرح بالقول: "أنا أفضل الأرض على الزنوج". وحين كان رئيس وزراء الكيب في أواخر القرن التاسع عشر، كان هو القوة الدافعة خلف قانون غلين غراي، الذي أسس أول "أرض محمية محلية" ومهد الطريق لقانون الأرض في العام 1913 الذي أخذ جنوب إفريقية من معظم شعبها وحصره في تجمعات رخيصة للعمالة. وقد كتب يقول: "يجب أن نتبنى نظاماً من الاستبداد... في علاقاتنا مع برابرة إفريقية". كان رودس، فوق كل شيء، رجل أعمال، والعمل "البريطاني" الذي ساعد رودس على بنائه في جنوب إفريقية أنتج كشف الميزانية الذي لم يكن يُحلم به من الأرباح، ومن المعاناة.

ولكن تلك الصورة لم تكن هي التي رأى المؤرخون الاستعماريون رودس بها. فطوال أكثر نصف قرن، كان بطلاً مشهوراً للإحسان الكريم الإنجليزي، الذي يبادر إلى أعمال الخير مثل مِنَح رودس الدراسية للنخبة. كان هو النموذج لأولئك السادة الإنجليز المسيحيين الذين أشرفوا على قرصنة مورست في كل أنحاء العالم في الوقت الذي كانوا فيه "يؤلفون" و"يصلحون" السكان المحليين "نحن معايير الحضارة الأوروبية".

هذه كانت هي الصورة التي عبرت بها جريدة مانشستر غارديان عن رأيها الليبرالي في أيار/مايو من العام 1948، عشية انتصار الحزب القومي، والذي شرّع من بعده التمييز العنصري:

لا يمكن حصر البانتو [الأفارقة] في أراضي محميات لهم، لأن هذه المحميات ليست كبيرة بما فيه الكفاية ولا هي خصبة بما فيه الكفاية لإعالتهم. ولا يمكن أن يستبعدوا من المدن، لأن الحاجة تدعو إلى وجودهم فيها، فصناعة جنوب إفريقية لا تستطيع النمو من دونهم... إن الحقيقة التي لا مهرب منها والتي تهيمن على القارة الإفريقية هي الحركة البطيئة – والبطيئة بطئاً مؤلماً في الغالب – ولكنها الحركة التي لا يمكن مقاومتها في نهاية الأمر من الشعوب الإفريقية نحو مستويات الحضارة الغربية.

وهكذا، فإن جماعة البرجوازية الناطقة باللغة الإنجليزية في جنوب إفريقية (وفي بريطانيا) استطاعت أن تعرض البوير بصفتهم متعصبين "غير مسؤولين" وأن تعرض هي نفسها بصفتها حاملة "اللاعرقية" المتنورة. لقد كانت أسطورة حية جداً حين وصلت لأول مرة إلى جنوب إفريقية في الستينيات من 1960. ويصف المؤرخ التنقيحي تيموثي كيغان ذلك بوصفه "الإنسانية الليبرالية [التي] تبين أنها شيء ضحل، مبهرج، خادع".[110]

إن التراث الملوث لرودس يساعد على شرح العاطفة التي أثارها الدور الذي لعبته الليبرالية البيضاء في جنوب إفريقية. إن صورة (أيقونة) ليبرالية مختلفة جداً عن رودس هي صورة ألان باتون، مؤلف كتاب ابك، يا بلدي الحبيب، الذي نُشر في العام 1948 المضطرب. كان باتون قائد الحزب الليبرالي المتعدد الأعراق، على الرغم من سيطرة البيض عليه. وكان قد تنبأ بأن "جنوب إفريقية سوف ترفض في نهاية المطاف الحزب الليبرالي، ولكنها سوف تقبل سياساته". ربما كان على حق، لأن الليبرالية قد قررت حدود ديمقراطية جنوب إفريقية.

كتاب ابك، يا بلدي الحبيب، باع خمسة عشر مليون نسخة وكان يعتبر "أهم قوة مفردة" أوصل ما كان يعرف تأدباً باسم "إساءة حكم الدومينيون"* – أي، الاضطهاد العرقي – إلى سوء السمعة الدولية. ومع ذلك ففي عالم باتون، لم يقدم تحرير الشعب الأسود أي نهضة سوداء، بل قدم بدلاً من ذلك الخلاص الأبيض.

* كل أمة ذات حكم ذاتي في الكومنولث البريطاني. ولا يخفى أن أصل المعنى هو السيادة والهيمنة.(المترجم)

فالنساء الإفريقيات سيغنين ويصفقن فوق أعمالهن اليومية، والرجال الأثرياء، مثل السير إرنست أوبنهايمر، كانوا شيوخاً بيضاً لطفاء، وحكم الإعدام كان هو الجواب على الجريمة السوداء.[111]

يرتفع مركز ألان باتون على أرض جامعة كوازولو- ناتال في بيترماريتزبيرغ، في المكان الذي عاش فيه. ويسود هناك الهدوء، والنساء اللطيفات يقدمن فناجين الشاي ومعها الكتيبات التي توضح المناسبات القادمة. وفي نسخة طبق الأصل عن مكتب باتون، عُلق معطف المشي الخاص به على كرسيه، وعلى الجدار الرسم الهزلي (الكرتون) الذي كان مفضلاً لديه وهو بعنوان "رجل المصابيح النبيل"، (الجنتلمان). ويصور هذا الرسم قطارين سريعين على وشك التصادم وجهاً لوجه. أحدهما هو "القوة السوداء" والآخر "القومية الأفريكانية" وباتون يلوح بالمصابيح، يحاول أن يوقف القطارين. إنه الموقف الليبرالي الجوهري.

ألقت هيلين سوزمان محاضرة ألان باتون في الذكرى الخمسين لنشر كتاب، ابك يا بلدي الحبيب. وهي أول ليبرالية من عصر التمييز العنصري، وكانت طوال ثلاثة عشر عاماً عضو البرلمان الوحيدة عن الحزب التقدمي في البرلمان الذي كان للبيض فقط. وقالت هيلين: "لقد أثارت الليبرالية ردود فعل سلبية عنيفة في صفوف أولئك الذين يكافحون من أجل التحرير في جنوب إفريقية. وكثيرون من الناس اتهموني بأني أعطي الشرعية لحكومة غير شرعية بمجرد الجلوس ببساطة في البرلمان. وكان جوابي هو أنني استخدمت البرلمان لأستفيد منه خير استفادة من أجل طرح أسئلة سابرة استثارت الأجوبة، التي يمكنني أن أضيف أنها كانت تستخدم بحرية من نقادي".

وقد أثنت في محاضرتها على باتون، وهو، مثلها نفسها،

كان أيضاً في الطرف الذي يتلقى النقد من الناس المشاركين في كفاح التحرير، وخصوصاً من أجل معارضته غير المهاودة لاستخدام العنف في الحملة المضادة للتمييز العنصري وللعقوبات الاقتصادية ولسحب الاستثمارات... لو كان حياً في العام 1995 وراقب الحماسة الجامحة التي اعترت كل الأمة لدى نجاح جنوب إفريقية [الديمقراطية] في لعبة الركبي العالمية، لكان حسب أن أمله "أمل واحد من

أجل بلادنا" قد تحقق بالفعل – مثلما عبر عنه في كتابه ابك – "يكون ذلك حين لا يرغب الرجال البيض والرجال السود لا في السلطة ولا في المال، بل يرغبون فقط في الخير لبلدهم الخاص، ويتحدون معاً للعمل من أجلها".[112]

كأس العالم لنهائي لعبة الركبي في العام 1995، الذي استضافته جنوب إفريقية وكسبته، كان احتفال جنوب إفريقية البيضاء بنهاية مكانتها المنبوذة دولياً. ورأس الاحتفال نيلسون مانديللا، وهو يلبس قميصاً سيئ التلاؤم مع جسمه من ملابس فريق اتحاد الركبي القومي لجنوب إفريقية (سبرنغبك)* ، وكان هذا بالنسبة إلى الكثيرين رمز السيطرة البيضاء، وبدا ذلك إشارة غير ضرورية، ومحرجة تقريباً. ولكن كثير من الليبراليين وافقوا عليها بروح فكرة باتون عن أن البيض الأقوياء والسود المفتقرين "يرغبون لا السلطة ولا المال" ويتحدون معاً من أجل "الخير لبلدهم الخاص" بغض النظر عن أن البلاد مازالت محكومة بالظلم.

كان الليبراليون جزءاً حيوياً شجاعاً من حركة التحرير. ففي العام 1983، أخرجت فيلماً عن هيلين سوزمان ووصفتها بأنها "صوت الاحتشام" في جنوب إفريقية. كانت متماسكة، وفي مدة 104 أيام، ألقت 66 خطاباً، وحركت 26 تعديلاً وطرحت 137 سؤالاً، في سبيل العدالة الاجتماعية، وكل ذلك في "برلمان" كان فيما عدا ذلك منتدى للفاشية وللمتعاونين معها. وهي أيضاً التي جلبت الأمل إلى مانديللا وإلى السجناء الآخرين الذين زارتهم، وهي التي كانت صارمة لا تلين في جعل العالم يعرف مظالم الاضطهاد في جنوب إفريقية.

وكنت قد سألتها آنئذ كيف تعاملت مع تهمة النفاق التي كانت تقول إن الامتياز الليبرالي ساعد على دعم التمييز العنصري، فقالت: "إنني أعمل ما أستطيع أن أعمله، ولكنه محدود. أنا بيضاء ذات امتياز. وكان من الممكن لي أن أغادر، ولكني قررت أن أبقى. الناس الذين يعتقدون أن الثورة قادمة يعيشون على بعد آلاف

* Springbok وهو اسم الغزال النافر الموجود في جنوب إفريقية، وهو شعار فريق اتحاد الركبي القومي في جنوب إفريقية. (المترجم)

الأميال. ونحن لن نحصل على تغيير كامل لنظام الحكم. ذلك ما لن يحدث". كانت على حق.

كان بيكو قاسياً مع الليبراليين. وقد كتب إليهم، يقول: لقد كان التمييز العنصري "قذى في العين يخرب بوجوده منظراً جميلاً". وهو قذى في العين كان يستطيع أن "يقلع عيونهم" في أي حين أرادوا ذلك.[113] وكان ذلك صحيحاً عن أبناء جنوب إفريقية الذين تمتوا تمتمة غامضة عن المظالم التي مارسها "القوميون" (الحزب القومي الحاكم) والذين بقوا فيما عدا ذلك صامتين ومتواطئين. ولم يكن ذلك صحيحاً عن أولئك الذين قاتلوا نظام الحكم، مثل سوزمان، قتالاً بارعاً وشجاعاً.

حين ذهبت لأول مرة إلى جنوب إفريقية، طلبت أن أرى لورنس غاندار، محرر جريدة راند ديللي ميل التي لا تصدر الآن، كان غاندار صوتاً وحيداً ارتفع ضد التمييز العنصري في الافتتاحيات الموقعة، التي وصفها خلفه، ريموند لوو، بأنها "نصيحة لبيض جنوب إفريقية بأن يعملوا الخيار الذي لا مناص منه، ولا مهرب منه. لا يستطيع البيض أن يمتلكوا أفضل ما في العالمين، ويستمتعوا بثمار التكامل الاقتصادي ويتجاهلوا التزاماتهم السياسية. كان عليهم أن يختاروا خياراً". وأدى كشف راند ديللي ميل للأحوال المفزعة للسود في سجون جنوب إفريقية إلى ترجيع الأصداء حول العالم، وكسبت له وللمراسل بنيامين بوغرند، محاكمة لثمانية شهور انتهت في غرامات ومدة سجن معلقة ضد بوغرند.

وقد كتب الصحافي الأسود ثامي مزواي عن غاندار: "من أيام المدرسة الثانوية للمرء، كان لجريدة راند ديللي ميل مكان خاص في قلوب المجتمع الأسود. وكانت أول صحيفة تنظر إلى السود بوصفهم كائنات بشرية. لقد قاتلتْ من أجلهم. وكان مزجها للكتابات الإلهامية والهجومية هو حديث الأزمان".[114] وعلى النقيض، فالكثيرون من القراء البيض لراند ديللي ميل استاؤوا من النور الذي أشعه المحرر في عيونهم، مثلما فعل الأعضاء الرئيسيون من مجلس إدارة الصحف المتحدة (أسوشيتيد نيوزبيبرز) التي كانت تملك الميل والتي فصلت المحرر في النهاية من العمل.

حين قابلت غاندرا كان رئيس التحرير، وهو منصب بلا سلطة. وسألته كيف احتمل صحافي صريح مثل هذه الحالة من الخوف كما في جنوب إفريقية. ونظر إلي بوجهه الأكمد ثم تابع النظر قبل أن يقول: "أنت تنتظر إلى أن ينفتح الباب وهم يدفعونك عبره. أنت لا تفتح الباب لهم أبداً".

ودونالد وودز هو أشهر هذه المجموعة. هو أبيض من الجيل الخامس في جنوب إفريقية الجيل الذي تكلم لغة الكوصا، وقد ترعرع وودز بصفته مؤمناً بالتمييز العنصري. وبعد سماعه لحوار منافق بشكل خاص في البرلمان، غضب جداً، وأدرك أن التمييز العنصري كان "كذبة كبيرة فاحشة". وبصفته محرراً للديللي ديسباتش قابل ستيف بيكو، وتحداه بيكو، وصادقه، وصار بيكو بطله. وربما، مثلما قد يفعل الليبرالي، سعى دونالد وودز بلا كلل إلى إقناع أعضاء في نظام الحكم بالتحدث إلى بيكو.

وحين خُطف بيكو وقُتل، أدى النقد المقذع من وودز إلى "منعه" هو شخصياً لمدة خمس سنوات، وهو ما منعه من الكتابة ومن أن يكون في صحبة أكثر من شخص واحد آخر. وفي نهاية الأمر هرب إلى لندن وتم إخراج فيلم، ابك أيتها الحرية، عنه وعن بيكو. وحين تقابلنا في جوهانيسبيرغ في العام 1998، ساعدني على أن أفهم تردد الليبراليين العظام في نقد حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي، حكومة "هم". وقال: "لا أستطيع أن أتخيل ذلك أبداً، والفرح المطلق وقف في طريق عيني الناقدة".

كانت شكوى بيكو هي أن الليبراليين البيض كانوا يحملون الافتراض بأنهم يتحدثون نيابة عن السود. وكتب يقول: "[وهم] تصرفوا بوصفهم المتحدثين عن السود. ولكن بعضنا آنئذ بدؤوا يسألون أنفسهم، (هل يستطيع أمناؤنا الليبراليون أن يضعوا أنفسهم في مكاننا؟) وكان جوابنا من شقين: (لا! هم لا يستطيعون،) و: (طالما بقي الليبراليون البيض ناطقين باسمنا، فلن يكون هناك ناطقون سود)".[115]

كانت العالم جريدة سوداء لا يمكن كبتها، وقاعدتها في سوويتو، وقد صرحت تحت ترويستها: "صحيفتنا الخاصة، والوحيدة". وقد جلبت العالم على

نفسها غضب نظام الحكم حين ساندت انتفاضة الأطفال في سوويتو في العام 1976، وأعمدة مثل "جوز بيرغ" سخرت من محاولة فرض الأفريكانية على المدارس. وفي جلسات استماع هيئة الحقيقة والمصالحة للصحافة، شكى الصحافون السود بغضب من أن عملهم وشجاعتهم ذهبت من دون الاعتراف بها وتقديرها.

وقد أخبرني هوع لوين، وهو صحافي ومؤلف مشهور، أنه فهم المرارة التي يشعر بها الصحافيون السود "المنسيون". وقال: "هم على حق. أولئك الصحافيون في درم وفي العالم أسسوا تقليدا قوياً جداً في ألا يجري تهديدهم بالمعاملة الخشنة، بغض النظر عن المخاطر. وذلك باق اليوم في صفوف الصحافيين السود، وبعضهم يتحلى بقلة احترام صحيّة جداً للسياسيين وللسلطة. وهم لا يثقون بالحكومة السوداء، ولم يسبق لهم أن وثقوا بالحكومات أبداً ولا يرون أي سبب للثقة بهذه الحكومة".

كان لوين صحافياً ومقاتلاً في المقاومة في آن واحد، وهو واحد من الأعضاء البيض في حركة المقاومة الإفريقية، وهي مجموعة منسية إلى حد كبير اليوم. وقد قبض عليه وقضى سبع سنوات في سجن بريتوريا المركزي السيئ السمعة بوصفه سجيناً سياسياً. ومذكراته، قاطع الطريق، أثر أدبي عن الكفاح ضد التمييز العنصري، أثرت في نفسي تأثيراً عميقاً.[116] وهو يصف السجناء السود وهم يصطفون في صف الموت بانتظار الإعدام ويغنون طوال الليل قبل الشنق، ويصف الإذلال المتمثل في أنه كان على السجناء أن يجلسوا يوماً بعد يوم، في دائرة، يخيطون أكياس البريد المتعفنة بخيط مطلي بالقار، ثم يحاولون بعد ذلك حك القار عن أيديهم بماء بارد كالجليد. ونادراً ما رأى زائرين.

وعند إطلاق سراحه، ذهب إلى المنفى طوال واحد وعشرين عاماً. وحين عاد إلى جنوب إفريقية، التحق بهيئة الحقيقة والمصالحة، التي صار عملها موضع إعجابه. وقد أخبرني عن الهيئة: "بأنها سمحت لنا أن نغفر، على الرغم من أن ذلك الموقف لم يكن موقفاً للمصالحة. كانت المصالحة من أجل ديزموند توتو، لا من أجلي".

وذكرني بماكس دو بريز، وهو الذي قامت مجلته التقرير الخاص (سبيشل ريبورت) بما كتبته عن جلسات استماع الهيئة، بإخبار البيض في جنوب إفريقية بما لم يكن الكثيرون منهم يريدون سماعه. وماكس ينتقد الصحافة "البيضاء" تحت حكم التمييز العنصري انتقاداً شديداً. وقال: "إنهم لم يتابعوا رواية الأحداث التي كنا نعلن عنها. وتركونا نتلقى وطأة المسؤولية والضرب. كان بإمكانهم إنقاذ الأنفس". وقام ماكس مع مجموعة من الأفريكانيين ومع آخرين بإصدار فري ويكلي (الحرة الأسبوعية)، وقامت عناوينها الجريئة التي لا تخاف بربط شخصيات موجودة في نظام الحكم مع زمره التي عرفت بزمر الموت .

إن كون فري ويكلي صحيفة أفريكانية جعلها خطرة على نحو خاص، وجعلها معرضة للخطر كذلك. وطوال أربعة أعوام، كانت واحدة من أكثر الصحف قراءة وأكثرها عرضة للاضطهاد في أي مكان. ضربت مكاتبها بالقنابل، وتلقى موظفوها تهديدات بالموت يومياً، وأمطرها نظام الحكم بمقاضاتها بالدعاوى الجنائية والمدنية. وجاءت النهاية حين كسب في الاستئناف رجل شرطة كبير متهم ورفع دعوى في المحكمة بالتشهير. وحين أمِرت الصحيفة بدفع الأضرار، أجبرت على الإغلاق في شهر كانون الثاني/يناير من العام 1994، قبل بضعة شهور من أول انتخابات جنوب إفريقية ديمقراطية.

في العام 1999، أعلن ماكس نفَسه على رؤوس الأشهاد "إفريقياً" في كتاب بعنوان، الوطني الشاحب.[117] وكان رد فعل العديدين من مواطنيه السود غاضباً، وكأن سلالة دمه الأفريكاني لا يمكن أن تغتفر أبداً. وبعد بضعة أعوام، سألته إن كان مازال يرى نفسه إفريقياً، فأجاب: "طبعاً. لاعلاقة للون جلدي بذلك".

تقع عقارات غروت سكور على منحدرات ديفيلز بيك (قمة الشيطان) بالقرب من كيب تاون. وكانت هذه العقارات في الأرض مخزن حبوب لُحِق بواحد من أوائل البيوت الهولندية التي أقيمت للسكن في المزارع، وقد أعيد بناء هذا المكان في أواخر القرن السابع عشر ليكون قصراً فخماً وأثث تأثيثاً يدل على حماقة مفرطة، ففيه سبع ساعات قائمة مطرزة بالذهب، من القرن الثامن عشر، تدق دقاً غريباً

مخيفاً في حجرات أبقيت مظلمة. وفي العام 1893 اشترى البيت سيسيل رودس، ثم رئيس الوزراء في الكيب، وهو الذي أمر بإحضار ما يكفي من أثاث الفترة من خشب القيقب (مابل) في لندن "للئه". وأعطى أمراً "لا فكتوريّة!* وأنا أحبها كبيرة وبربرية". ويبقى رودس موجوداً ذا حضور حتى اليوم. فالدَّرج المنحني مثبت بنسخ خشبية طبق الأصل من طير زمبابوي** الذي كان يحتفظ به في غرفة نومه، التي لم يتغير فيها أي شيء منذ أن نام هناك وحيث توجد خزانة تعرض تمثالاً لقالب وجهه الميت.

حين جئت لأول مرة إلى جنوب إفريقية في الستينيات من 1960، كان جوهانيس فورستر، وهو معجب بالنازيين وقائد مساعد سابق لقوات الصاعقة، كان يتربع مستريحاً في محل إقامة رئيس الوزراء في غروت سكور. والآن، حين كنت أنتظر عند البوابة، بدا لي وكأن الحراس لم يتغيروا. فكلهم أفريكانيون بيض، وقد دققوا في بطاقة هويتي بثقة رجال يعملون عملاً موثوقاً. ويقولون بالأفريكانية ما يعني "نحن نتلقى الأوامر فقط". أحد الحراس كان يحمل نسخة من كتاب المسير الطويل نحو الحرية، وهو سيرة نلسون مانديللا. وقال: "أكاد أنهيه تقريباً. إنه يستثير الإلهام جداً". قالها وهو يشدد بلفظه على كلمة الالهام.

كان مانديللا قد نال قبل قليل نوم القيلولة بعد العصر وبدا نعسان، ولم يربط بعد رباط حذائه. كان يلبس قميصاً ذهبياً زاهياً، وتحرك بهدوء إلى الغرفة التي كانت تقيم فيها السيدة فورستر، والسيدة بوتا، والسيدة كليرك حفلات الشاي بالخزف العظمي الذي مازال معروضاً. وقال لي وشفتاه تنفرجان عن ابتسامة: "أهلا

---

* الفكتورية: اسم يعطي للدلالة على المواقف، والفن، والثقافة في أواخر القرن التاسع عشر، نسبة إلى العصر الفكتوري (1837 – 1901) وهذه مدة حكم الملكة فكتوريا في بريطانيا.(المترجم)

** طير زيمبابوي هو الشعار القومي لزيمبابوي، وهو طائر منحوت من الحجر كشفت الحفريات عن خمسة منه، وأخذها سيسيل رودس إلى جنوب إفريقية. أعادت حكومة جنوب إفريقية أربعة منها إلى زيمبابوي واحتفظت بالخامس في غروب سكور.(المترجم)

بعودتك" إن مجرد الموافقة من الرجل تجعلك تشعر شعوراً طيباً. وقال لي: "يجب عليك أن تدرك أن منعك من دخول بلادي شرف عظيم".

بطل منطقة مدن العزل العنصري في الخمسينيات من 1950، والأرستقراطي، والملاكم، والراقص، ورجل السيدات والمحامي كلها بدت واضحة. وقال لامرأة كانت تنتظر لتقابله: "ألست متزوجة حتى الآن؟" وضاع احتجاجها وجوابها "ولكني متزوجة!" وسط ضحكته. وحين سألته كيف يشعر حين يُنظر إليه وكأنه قديس، أجاب: "لا يسمح للقديسين أن يرتكبوا أخطاء. وذلك ليس هو العمل الذين تقدمت إليه".

وهو معتاد على نحو طيب على المقابلات المحترمة. وقد أغضبني، عدة مرات "أنت نسيت نسياناً كاملاً ما قلته لك" و"لقد سبق أن شرحت لك تلك المسألة". ومن عادته ألا يتسامح بأي نقد للمؤتمر الوطني الإفريقي ويقدم قائمة بإنجازات الحكومة: الدستور، والإمداد بالماء لأكثر من مليون نسمة، وبناء المستوصفات، والرعاية الصحية المجانية للنساء الحوامل وللأطفال. واقتبس مجموعة من الإحصاءات حول التضخم، والعجز والنمو الاقتصادي وهو "صاعد ويسير نحو الأعلى".

وسألته: "ألم يكن هناك نوعان من التمييز العنصري؟ أَوَلَم يكن الأرسخ فيهما هو التمييز العنصري الاقتصادي، وهو الذي لم يتغير؟

"يجب عليك أن تتذكر أن أفضل طريقة لإدخال التحول هو أن نفعل ذلك من دون أن نقتلع أي ناحية من نواحي حياتنا العامة. نحن لا نريد أن نتحدى الأعمال الكبيرة التي يمكن أن تصاب بالفزع وتأخذ أموالها وتبتعد".

"ولكن ماذا عن الأثرياء الذين يزدادون ثراء والفقراء...؟"

"بالنسبة إلى فقراء الناس، في ما يلي مثال لك. ليس هناك بلد أعطيت فيه العمالة المستأجرة الأمن الذين أعطيناه لهذه العمالة، وبموجب ذلك فهم يمتلكون الحق بالأرض التي يشغلونها، ولا يستطيع المزارع أن يقوم بالطرد".

"ولكنهم يقومون بإخلائهم، بغض النظر عن التشريع الجديد. ولمعظم الفلاحين المستأجرين، لم يتغير إلا القليل".

"لا، لا، تلك مبالغة. لقد أنشأنا عملية وهياكل مناسبة..".

"ميثاق الحرية قال إن شعب هذه البلاد سوف يتقاسم كل ثروتها. هل مازال ذلك ممكناً؟"

"لم لا؟ إنهم يبدؤون في تقاسم تلك الثروة. إن لديك الآن سوداً، وملونين، وهنوداً يشتركون في شركات تحكم على بلايين من الأصول، وهو شيء جديد بالكلية في هذا البلد. أنت ترى في جوهانيسبيرغ الكثيرين من السود الآن يشترون الممتلكات في الضواحي الثرية".

"كثير؟"

"مقارنة بالسابق..".

"وزير في الحكومة دعا سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي بأنها تاتشرية، كاملة مع الخصخصة وتخفيض سلطة التنظيم الحكومية..".

"تستطيع أن تضع أي تسمية عليها أنت تحبها، تستطيع أن تدعوها تاتشرية ولكن، بالنسبة إلى هذه البلاد، الخصخصة سياسة أساسية".

"وهذا عكس ما قلته أنت قبل أول انتخابات، في 1994".

"هناك عملية. يجب عليك أن تقدر أن كل عملية تنطوي على تغيير".

"هل توجد هناك بلاد قد أرضت حاجات الأغلبية، الفقراء من الناس، بسياسات مشابهة لسياسات جنوب إفريقية؟"

"لماذا يتوجب علينا أن نقارن أنفسنا بأي جزء من العالم؟ نحن لا نحتاج إلى مقارنة أنفسنا مع البلدان الغربية، لأن هذه البلدان متخلفة خلف بلدان الشرق الأوسط، مثل المملكة العربية السعودية، التي يتمتع فيها الطلاب بمنافع لم أر مثلها في أي مكان في العالم، الطلاب هناك يدرسون مجاناً، لا بل يدفع للطالب ثلاثمائة دولار شهرياً من أجل الدراسة مجاناً. أنت لا تجد مثل هذا في الغرب.

"المملكة سجلها في حقوق الإنسان والقضاء مثلما كنتم".

"ماذا يعني (سجل حقوق الإنسان)؟ أنا لا أشارك بالرأي الذي يعرف حقوق الإنسان تعريفاً ضيقاً. هل بلاد امثل الولايات المتحدة] لديها حقوق إنسان حين يكون قسم كبير من شعبها فقيراً ومريضاً ولا يستطيع توفير الدواء؟ يجب عليك ألا تفكر فقط بالبلدان التي لديها انتخابات".

"كانت المصالحة موضوعك الثابت باستمرار. هل تفكر في الحقيقة التي توضح أنه ما من شخصية قيادية واحدة في نظام الحكم القديم – من العسكريين، أو من رجال الأعمال، أو من القضاة – قد أظهرت أي ندم أصيل عن التمييز العنصري؟"

"ذلك يذهب بعيداً جداً. لقد أثنى رئيس الأساقفة توتو علناً على الكنيسة الإصلاحية الهولندية لاعتذارها. ولديك أفراد مثل ليون وسل، وعمدة مدينة وبعض الآخرين الذين اعتذروا على وجه العموم. ما يريده الجمهور هو أن يقوم أولئك الذين كانوا في المناصب العالية بالاعتراف بأنهم منحوا السلطة لاقتراف جرائم التمييز العنصري. ذلك لم يكن وشيكا... ونعم، إنها لمأساة أن دو كليرك تجنب قبول المسؤولية عما مَنَح السلطة لاقترافه".

إن غموض مانديللا قد استبان في تعاملاته مع الحكومات الأخرى. فهو بصفته أول رئيس للتحرير، أمر بغزو مضحك ودموي ضد ليسوتو الصغيرة. وسمح ببيع أسلحة جنوب إفريقية إلى الجزائر، وكولومبيا، والبيرو التي لها سجلات سيئة السمعة في حقوق الإنسان. ودعا الإندونيسي القاتل الجماعي الجنرال سوهارتو لزيارة جنوب إفريقية ومنحه أعلى جائزة في البلاد (سورهاتو قدم الأموال للحزب الوطني الإفريقي في المنفى). واعترف بالمجلس العسكري البورمي الوحشي بصفته الحكومة الشرعية، على الرغم من أن محنة رئيسها الشرعي، وهو أونغ سان سوو كايي، الذي يقبع تحت الاعتقال الدائم في البيت، كانت تعكس كفاح مانديللا الشخصي. وحين سألته حول هذا، أجاب بمجرد القول إن التمييز العنصري كان "فريداً" – وهو ما ناقض دعمه الثابت للفلسطينيين وللتوازي الذي يرسمه بين التمييز العنصري الإسرائيلي والتمييز العنصري الجنوب إفريقي.

ومع ذلك فإن حكومته قادت الحملة العالمية المناوئة للألغام الأرضية حتى النصر في الأمم المتحدة في العام 1977. وكان في تقاعده، أكثر صراحة منه حين كان رئيساً، ويبدو إحساسه بالظلم أشد مضاضة، وكأنما يشعر أنه حر أخيراً لينفق ميراثه الأخلاقي. في العام 2002، قام بحركة معبرة مؤثرة سياسياً أظهرت عدم موافقته على اللامبالاة الواضحة من خليفته نحو كارثة مرض متلازمة نقص المناعة المكتسبة (الإيدز). وعانق عاملاً نشيطاً في الإيدز، وهو زاكي أكمات، الذي كان معه فيروس نقص المناعة الإنسانية (أتش أي في) إيجابياً. وقد مات كثيرون في جنوب إفريقية من مرض الإيدز من دون إقرار عائلاتهم بسبب الوفيات. وقد كشف هو أيضاً أن ثلاثة أفراد من عائلته الخاصة قد ماتوا بالإيدز. وقال مانديللا وهو يضع ذراعه حول أكمات: "ليس هناك ما يخجل".[118]

وربما لم تقم أي شخصية دولية بتحذير العالم من مخاطر نظام حكم بوش مثلما فعل مانديللا. وعلى الرغم من أنه قد تراجع نوعاً ما لاحقاً، فقد قال إن بوش "يدخل الفوضى إلى القضايا الدولية". (وحين لم يرد بوش على إحدى مكالمات مانديللا، اتصل ببوش الكبير وطلب منه "أن يفعل شيئاً" نحو ابنه.) ووصف مانديللا ديك تشيني ودونالد رامسفيلد بأنهم "ديناصورات لا ترغب [البوش] أن ينتمي إلى العصر الحديث... إن ما يجري مأساة، إن ما يفعله بوش في العراق مأساة. إن ما أدينه هو رئيس لا يمتلك البصيرة، ولا يستطيع أن يفكر تفكيراً صحيحاً، وهو يريد الآن أن يقذف العالم إلى محرقة". ووصفه لطوني بلير بأنه "وزير خارجية بوش" كان وصفاً مؤقتاً توقيتاً حسناً، فثابو مبيكي، خليفة مانديللا، كان يوشك أن يزور بلير في داوننغ ستريت.[119]

وحين وصلت مقابلتي إلى نهايتها، مال مانديللا إلى الأمام وسألني إن كنت أعتقد أنه كان "ليناً جداً" مع إندونيسيا حول تيمور الشرقية. وقلت له نعم، لقد كان ليناً جداً. فقال: "إنه مأزق. لقد ساعدوا المؤتمر الوطني الإفريقي في أثناء كفاحنا". وحين مشيت معه إلى الباب، ومررنا على الخزف العظمي للسيدة فورستر وطيور سيسيل رودس الخشبية من زيمبابوي والساعات السبع القائمة،

قلت له: "لا بد أنك في بعض الأوقات تصدم بالمفارقة الساخرة في موقفك". فقبض بشدة على ساعدي، وقال: "في كل الوقت". وحين كان يدخل إلى سيارته المرسيدس الفضية، لم يكن بعد قد ربط أربطة حذائه، وكان رأسه الصغير الأشيب لا يكاد يرى في مجموعة من الرجال البيض بكروشهم وأسلحتهم الضخمة وبالأسلاك في آذانهم. أحدهم أصدر أمراً باللغة الأفريكانية وذهبت المرسيدس وذهب فيها مانديللا.

دينّي من شركة كنغ لسيارات الأجرة ساق بي السيارة إلى سوويتو. وقال لي: "أنا لا أحب أن أكون هنا. إنه مكان للدموع وللدماء". وتقع سوويتو على بعد 20 ميلاً من جوهانيسبيرغ، وهي المسافة التي اعتبرها مجلس المدينة الحد الأدنى من "المسافة المحترمة" عن الضواحي البيضاء. واستُخدِم انتشار الطاعون الدمّلي في العام 1904 ذريعة لتجميع السود خارج المدينة ووضعهم في موقع "محلي" في منطقة شجرية لمزرعة تسمى كليبسروت.

وسقنا السيارة عبر كليبتاون، ومررنا بمحل وندرفول هير صالون (صالون الشعر الرائع) وبمحل نانا ليكور ستور (مخزن نانا للمشروبات الكحولية) ومررنا ببقع من الأرض ذات قش انتشرت عليها ملابس مستعملة معروضة للبيع. لقد كان هذا المكان هو الذي عُرِض فيه ميثاق الحرية لشعب جنوب إفريقية في 26 حزيران/يونيو 1955. أكثر من سبعة آلاف نسمة شاهدوا 2884 مبعوثاً للمؤتمر الوطني الإفريقي وهم يتبنون الميثاق، ثم يتلونه كالصلاة، ننشد "لشعبنا... حق أبنائه المكتسب بالولادة بالأرض، وبالحرية وبالسلام [المسروق] من نوع من الحكومة المؤسسة في الظلم وعدم المساواة".

وعند اقترابنا من سوويتو، كان برج مراقبة للجيش ينتصب فارغاً، والأسلاك الشائكة مقطوعة ومبعثرة، وصدئة، في عشب طويل. على هذا الطريق وقفت تلك المرأة النحيلة بين العربات المدرعة من نوع "هيبوس"، وقبضتاها مغلقتان بشدة. وحين قلت لديني إن هذا المكان كان بالتأكيد مكان الأبطال، هز رأسه وقال: "دموع ودماء..".

كنت قد رتبت أن أقابل سيفيسو ماكسوليسي ندلوفو في مدرسته القديمة، المدرسة الثانوية فيفيني، التي بدأت فيها أعظم انتفاضة سوداء في جنوب إفريقية. في العام 1976، كان سيفيسو واحداً من منظمي مقاطعة الطلاب لفرض اللغة الأفريكانية لغة للتعليم. وكان نظام الحكم قد أمر باستبدال الإنجليزية وإحلال ما سماه سيفيسو "لغة المضطّهِد". وكان وكيل الوزير لتعليم للبانتو، وهو الدكتور أندرياس ترونيشت، قد أخبر البرلمان الأبيض وسأله: "لماذا يجب أن يسمح للسود بالدخول إلى المدارس إذا لم يكونوا يرغبون التعلم باللغة التي اختارتها الحكومة؟"[120]

قابلني سيفيسو عند بوابات المدرسة، التي كانت محاطة بلفات من الأسلاك الشائكة "لإبقاء المجرمين في الخارج". وفي مقابل المدرسة من اتجاه قطرها يقوم بيت الشقة المسقوفة التي كان يعيش فيها نيلسون ووينى مانديللا في الخمسينيات من 1950. ومقابل 1.7 من الجنيه الإسترليني تستطيع أن تلقي نظرة حول المكان وتتفحص صوراً عائلية حبيبية وتقرأ بطاقات عيد الميلاد التي أرسلها نيلسون إلى أطفاله من جزيرة روبن.

قال سيفيسو: "كنت في الرابعة عشر من عمري. والأولاد الذي كانوا أكبر مني سناً استبعدوا من البرنامج التجريبي [لفرض اللغة الأفريكانية]، وهكذا فإن كل أولئك الذين كانوا مشاركين في المقاطعة كانوا صغاراً جداً. وفي الحال انتشر الموقف إلى بقية المدارس وتم التخطيط لمسيرة في السادس عشر من حزيران/يونيو. وضعنا لافتات قالت: (اللغة الأفريكانية إلى الجحيم.) كنا غاضبين، ولكننا كنا سعداء كذلك. لم نكن نريد مواجهة. كنا نريد أن نُسمع".[121]

في الساعة الثامنة من ذلك الصباح، كان ما يصل إلى عشرة آلاف طالب يسيرون من مدرسة أولاندو الثانوية. وأمام المسيرة كان هناك مئات من الشرطة المسلحة. لم يكن نظام الحكم قد عرف أي شيء مثل هذا من قبل. أولاد وفتيات مفعمون بالحماسة غنوا ورقصوا وأذرعتهم متشابكة. وهتفوا "بعداً

للأفريكان!" وهتفوا مرة تلو المرة. وفتحت الشرطة النار وقتلت أربعين طفلاً في أول رشق من وابل الطلقات. ومن بين القتلى كان هكتور بيترسن الذي كان في الثالثة عشرة من عمره. وتوجد صورة مشهورة لجسده وهو محمول من صديق محزون، وأخت القتيل تركض إلى جانبه. وصارت هذه الصورة رمز المقاومة التي ستعاني المزيد من السنوات العديدة من "الدموع والدماء" في كفاح من أجل حرية لم تكتسب بعد.

* * *